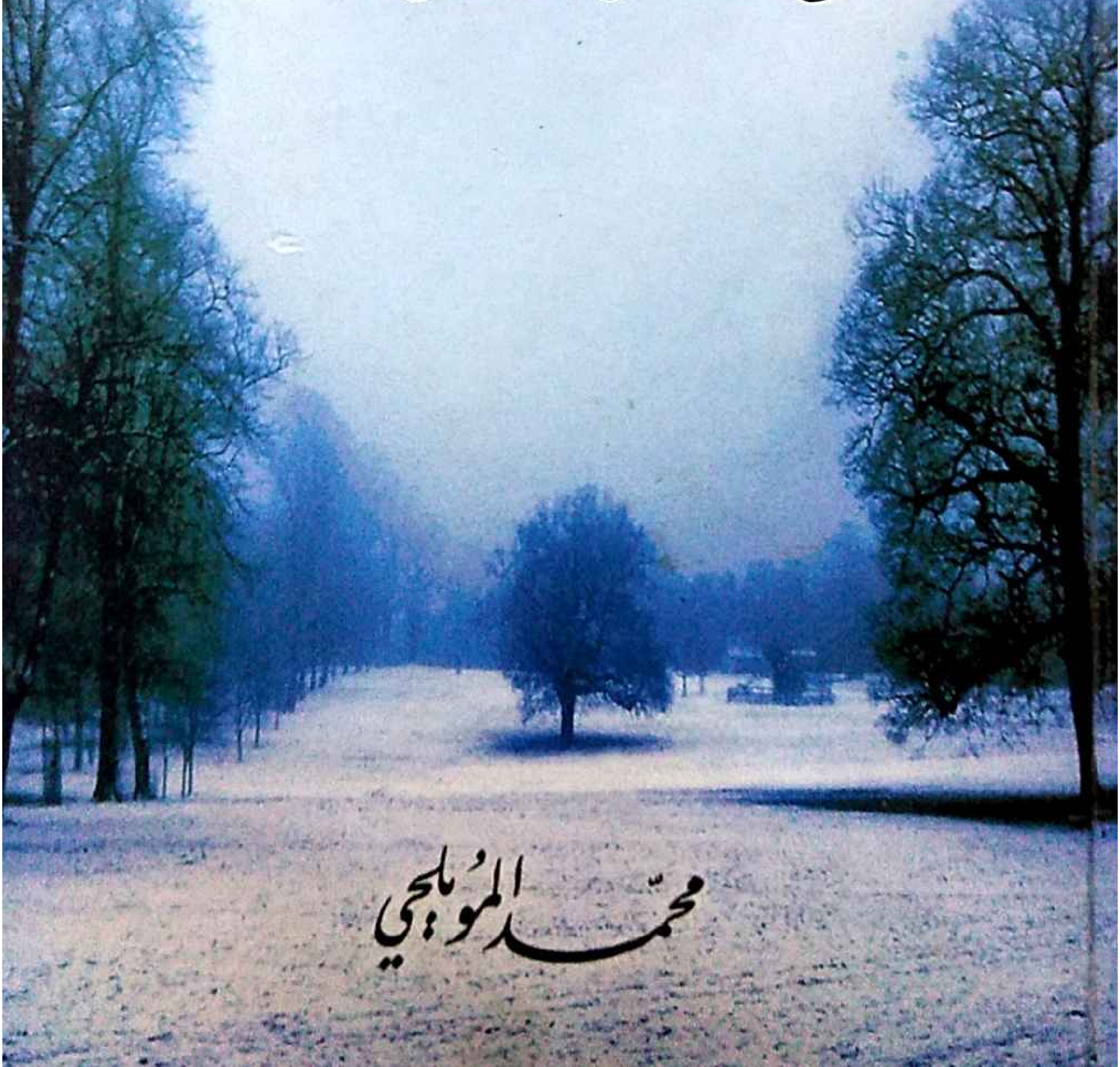
عِلاجُ النّفس

تهذيب النفس وحثّها على استكمال الأخلاق الفاضلة



محمّد المُويلحي

عِلاجُ النّفس

بسم الله الرحمن الرحيم

عِلاجُ النفْس

تهذيب النفس وحثّها على استكمال الأخلاق الفاضلة

محمّد المُويلحي

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

صورة الغلاف: سنا الفاروق للنشر
الخطوط: أحمد المفتي

سنا الفاروق للنشر

«سنا الفاروق للنشر»
هاتف: ٦٦٧٦١٧٢ (٢) ٠٠٩٦٦
فاكس: ٦٦٧٦١٠٧ (٢) ٠٠٩٦٦
ص.ب: ٥٣٤١٣ جدة ٢١٥٨٣
المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

الحمد لله الذي خلق النفس فسواها وألهمها فجورها وتقواها وأصلي وأسلم على سيدنا محمد ذو النفس الزكية وعلى آله الطيبين الطاهرين ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين،،، أما بعد..

قـل فـكـم مـن جـواهـرِ بـنـظـامِ
ودّهـا أنـهـا بـفـيـك كـلامُ

النفس أغلى ما يملكه الإنسان، فهي معجزة الخالق التي أقسم بها حين سوّاها، وحثها على التفكّر والتبصر في خلقها. وفضلها على غيرها من النفوس. فحفظ كرامتها وزاد من شرفها، وتجلّت قدرة الباري في تكريم النفس أن جعلها ذات اختيار، ومنحها الحرية الواسعة في اتخاذ القرار. ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ولم يكلف الله النفس إلاّ ما أتاها، فكل نفس تجادل عن نفسها، ولا تجزى عن غيرها شيئاً. ومن حكمته سبحانه أن جعل بينها وبين المستقبل حجاباً

مستوراً ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ فسبحان الذي ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ وما أعجب القدرة الإلهية في هذا الإنسان بشعوبه وقبائله منذ خلق الله آدم إلى يومنا هذا، حين خلقهم من نفس واحدة، ثم إلى مصير واحد يرجعون ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ إنه القهر الإلهي لهذه النفس البشرية في البداية والنهاية الذي يتساوى فيه كل بني الإنسان.

والنفس تعرف خالقها وتأنس به وتلجأ إليه، فلها به تعلق مستور تتلذّذ به في الرحمات وتستأمن به عند المخاوف والفزعات، واللجوء الصادق في الاتصال بالخالق لا تتطلع عليه الملائكة فتكتبه ولا الشياطين فتفسده. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ وهو ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾.

فتأمّل الرحمة الإلهية في لطفها الودود حين يقول الباري ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ واسبح بفكرك في ملكوت اللطيف بعباده في قوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ إنه الخالق البارئ اللطيف بعباده القائل ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

ولذيذ الحياة أنفس في النفـــ
س وأشهى من أن يمل وأحلى

أيها القرّاء الكرام . .

لقد ألقي إليّ كتابٌ كريم من فضيلة الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي نالَ من نفسه القدح المعلّى، إنه كتاب: **علاج النفس** لمحمد المويلحي رحمه الله. فأراد أن يصلنا شيخنا البيومي بهذه الشخصية الكريمة من القرن الماضي التي نالت من اسمها أوفر الحظ والنصيب. فهو مويلحيٌ في أدبه الرفيع وبلاغته الساحرة، وحكمته البالغة وأسلوبه المتميّز وهو محمودٌ في سيرته العطرة وأخلاقه الفاضلة وما اقترن البيومي بالمويلحيّ في إرشادنا إلى هذا الكتاب إلاّ لجامع بينهما في الأدب الرفيع والخلق الفاضل.

إنّ هذا الكتاب كريمٌ في صدق النفس وصفائها التي تحلق بك إلى قمم الروابي، ثم تأخذك إلى شواطئ البحار وتنتهي بك إلى مواطن السكينة ومكامن الاستقرار.

ومن اللافت للنظر في هذا الكتاب الكريم البيان المنير والحكمة العذبة فهو يعرض تجارب السنين وحكمة الأيام في صفحات مشرقة وأسطر مضيئة يطوف بك في عمر مديد جاد به صاحبه المجيد في كتابٍ استوى على سوقه يوم الحصاد لتقطف منه الثمار اليانعة في هذا الكتاب.

لقد كان محمد المويلحيّ رحمه الله يتحلى من الأخلاق شهدها ومن الفضائل عذبها فحالفه التوفيق لأنه يكتب ما

يتمثله في حياته ويطبقه في غدوه ورواحه وبهذا المثل الصالح استحقّ بمكارمه الاقتداء وبنبل أخلاقه الاهتداء.

وعلمت أنك في المكارم راغبٌ

صبٌ إليها بكرة وأصيلا

إن التوفيق قد حالف المويلحيّ رحمه الله وشدّ على ساعده حينما استطاع أن يقرّب إلى الذهن التوازن بين الروح والجسد في النفس البشرية، وهذا فتحٌ إلهيّ وتوفيق مبارك.

والمويلحيّ (رحمه الله) له نفسٌ كنسمة الصباح المنعش، استطاعَ بما وهبه الله من صفاء والهام أن يصل إلى أدق خلجات النفس الإنسانية وأن يبرزَ أحاسيسها المكنونة، فأظهر كثيراً من خفاياها وصوب الضوء على جميل مزاياها. كما له قدرة فائقة في استظهار أحاسيس النفس تجاه خالقها ومع ذاتها ومع الآخرين في انسيابٍ لطيف ولغة صادقة وبلاغة نادرة، ولعلّك تشعر وأنت تقرأ هذا الكتاب أن التي تحدثك هي نفسك التي بين جنبيك فإذا بخواطر الأفكار تتناثر أمامك كالورود المتفتحة من أكمامها فتقطف منها النتائج الصادقة والحقائق الوضاءة وهذه براعة لا يملكها إلاّ الصادقون الأفذاذ كالمويلحيّ (رحمه الله).

نَطِقٌ إذا حط الكلام لثامه

أعطى بمنطقه القلوبَ عقولا

لقد تحدّث الكاتب الكبير في هذا الكتاب عن كثير من أحوال النفس البشرية تمر بنا في أيام العمر دون أن تقف النفس عندها وترجع البصر إليها. إلاّ أن وقفاته المباركة تملىء نفسك بالراحة والأمان، فهو يذكرك بما ندّ عن خاطرك وغاب عن بالك، ولا يقف عند هذا الحد فبعد أن يُشخص لك الداء يجودُ عليك بالبلسم الشافي والدواء المعافي.

فقد تحدث عن الغضب في فصل من هذا الكتاب يستحق أن يكتب بماء الذهب وقد نالَ ما تحدث به عن الغضب من نفسي كل الرضى، وذلك لما احتوى من براعة في التشخيص ونجاعة في الدواء.

ومما يجعل لهذا الكتاب مكانته الرفيعة ومنزلته المباركة، حديثه عن أدواء النفس ودوائها حين شطّ المزار بكثير من الكتّاب عن موضوع قيّم كهذا فضربوا عنه الذكر صفحاً إلى مواضيع لا تسمن ولا تغني من جوع تتلاشى من الذهن حين الانتهاء من قراءتها تعلّق النفس بخيالات واهية وغيبيات مستتره، فلا تزيد النفس إلاّ ضعفاً، ولا تزيد من يتعلق بها إلاّ وهناً على وهن.

أمّا المويلحيّ (رحمه الله) فقد كان خير سفير للنفس الإنسانية. لأنه وصل النظرية بالواقع وعاش الحياة بحقيقتها كما يعيش فيها الإنسان الطبيعي فزالت تلك المثالية النظرية

وأصبحت واقعاً عملياً وحقيقة ملموسة.

وهذا الذي فقدته كثيراً من المجتمعات المعاصرة اليوم، فتفشّت فيها الأمراض والاكتئابات النفسية التي هي أفتك من الأوبئة والفيروسات الجسدية والبحث عن شفاء النفس أغلى وأسمى من شفاء الجسد (رغم أهميته) فالمرء بالروح لا بالجسم إنسان.

أصادق نفس المرء من قبل جسمه
وأعرفها في فعله والتكلم

فرحم الله المويلحي الذي يضوع مسك الصدق الذكيّ في حديثه والذي عالج نفسه من بلسم هذا الكتاب الشافي حين طوّع نفسه على الفضائل ومكارم الأخلاق وكان كريم النفس حينما أوصلَ إلينا ما ناله من الشفاء وما حلّ به من العافية ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾.

وكأنه يرى ما حل بالمجتمعات الإنسانية حين هاجمتها أمراض النفوس الفتاكة وحولتها من الفضيلة إلى الرذيلة ومن السماحة إلى الأنانية فخلع أُناس ثوب الفضيلة بسبب مرض من أمراض النفس فهذا يحمل حسداً مقيتاً أو غضباً جامحاً أو كراهية عمياء أو منافسة حمقاء يستبدل بها الذي هو أدنى بالذي هو خير فيتجرّع كأس الهوان بعد أن كان يُشار إليه بالبنان.

أيها القارئ الكريم. . .

لعلّك تجد في هذا الكتاب القيّم الكثير والكثير من الفائدة والدواء الناجع بعد أن غرقت كثير من النفوس في غمار هذه الدنيا المؤثرة وزخرفها الفاني.

ومما يسعدنا أن يكون في المجتمعات الإنسانية من الموفقين الأخيار، الذين يحملون نور الهدى ليخرجوا الناس من حنادس الظُّلَمِ والدجى ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

أسأل الله الكريم في عليائه أن يتغمد الشيخ محمد المويلحي بواسع رحمته وأن يسكنه فسيح جناته وأن يكتب له الثواب الجزيل والأجر الوافي على هذا الكتاب القيم واسأله سبحانه أن يجزي فضيلة الدكتور محمد رجب البيومي خير الجزاء على هذه الإضاءة المشرقة بالتوجيه لهذا الكتاب الكريم.

ما كل من طلب المعالي نافذاً
فيها ولا كل الرجال فحولا

والحمد لله رب العالمين.

عمر بن حسين الموجان

محمد المويلحي ـ يعالج نفسه

بقلم الدكتور: محمد رجب البيومي

منذ سنوات بعيدة رأيت أوراقاً مجتمعة من كتاب يتحدث عن الأخلاق الإنسانية في طبعة مدرسية مشكولة الكلمات، وقد نزع غلافه وضاعت مقدمته مع بعض صفحات الفصل الأول، فأخذت أقرأ مما بين يدي فراقني أن أجد بياناً صافي النمير وبلاغة ترتفع إلى أرقى عهود الفصاحة، وكدت أحسب المؤلف علماً من أعلام العصر العباسي، لولا أني وجدت استشهادات بأقوال سديدة لأعلام من الأوروبيين فيما بعد عصر النهضة، وعزّ عليّ أن أترك الأوراق عارية تشكو إلى الله سفور الجسد، فاصطفيت لها غلافاً صنعته بيدي، وكتبت عليه بخط النسخ (فصول أخلاقية لأديب عظيم) وكنت أعاود قراءة هذه الأوراق بين الفينة والفينة يائساً من الاهتداء إلى مؤلفها، حتى وقع في يدي كتاب (علاج النفس) لنابغة عصرِه السيد محمد المويلحي فأدهشني أن يكون هو الضالة التي أنشدها، وحمدت الله أن صدقت فراستي حين كتبت على الغلاف (لأديب عظيم) فأي أديب كان أعظم سداداً من المويلحي في

خاتمة القرن الماضي وأوائل هذا القرن، حين كان يرسل فصوله الساحرة في مصباح الشرق فترج العالم الأدبي رجاً، وأنا أحب أن أتترس بغيري حين أجده أوفى تعبيراً، وابلغ إصابة في الإفصاح عما أريد، ومن يكون أبلغ من الكاتب المصوّر الفنان الأستاذ عبد العزيز البشري حين تحدث عن مصباح الشرق؟ فقال[1] (لقد كان مصباح الشرق) شيئاً طريفاً حقاً، كان ابلغ من طريف، فإنه لأعجوبة حقاً، إنه لشيء يكاد يتصل بحكم الخوارق في تلك الأيام!

لا يدخل الأصيل في يوم الخميس من كل أسبوع إلا وقد زاغت أبصار وتكرشت جباه، وتقلصت شفاه وتداركت أنفاس، ووجبت قلوب، هل رأيت انفلات الطائر بعد طول الاحتباس؟ كذلك كان يترقب الخاصة مشرق المصباح، وسرعان ما تتخطفه اليد الراجفة فتشقه، وسرعان ما يشيع البصر كله في مساحة النقد كلها لا يستقر على موضوع خاص، ولا يتحيز في حديث معين، بل إنه لينساح على الصفحة كلها انسياحاً ليدرك قبل رد الطرف أشك المويلحي اسم صاحبه فيمن شكه؟ أم أرسله في جملة الطلقاء؟ حتى إذا اطمأن الرجل إلى أنه قد كتبت له السلامة لجمعته، ألقى الصحيفة بين يديه، وجعل يطامن نفسه، ويبسط من خلقه ما

---

(١) المختار للبشري ط ١ ص ٢٦٤ ط دار المعارف.

تقبض، ويفرغ من روعه ما يحبّس، وإذا كان هذا شأن من لم تصب منهم أقلام المويلحين فاحكم أنت عصمنا الله وإياك ـ كيف كانت حال من تنال منهم هذه الأقلام)؟

أسمعت ـ قاريء العزيز ـ ما قال البشري، أفما يجب على مثلي أن يسكت ليقول؟!.

على أني أعذر نفسي بعض العذر إذ لم أهتد للمويلحي بدءاً حين وقعت بين يدي الأوراق، لأن سادتنا مؤرخي الأدب المعاصر، يتحدثون عنه فيقصرون القول على كتابه (حديث عيسى بن هشام) وحده، ولا يذكرون شيئاً يسيراً أو كثيرا عن علاج النفس، وهو قصور لا أدري كيف أصر عليه سادتنا المؤرخون كابرا عن كابر، ولو كان مشرب الكاتب في حديث عيسى بن هشام هو مشربه في علاج النفس لجاز لنا أن نقول أنهم يكتفون ببعض عن بعض، ولكن أسلوب عيسى بن هشام لا يلتقي مع أسلوب علاج النفس في طريق واحد إذ سلك الأول مسلك بديع الزمان الهمذاني في المقامة، فهو يصوّر المجتمع المصري على طريقة البديع حوارا وسجعا وازدواجا، ولا يكاد يسترسل إلا إذا استطرد لإيضاح مسألة علمية، أو تحقيق أمر تاريخي أو مناقشة حكم فقهي، أما أسلوب المويلحي في علاج النفس فيترك الهمذاني في القرن الرابع مرتفعاً إلى ابن المقفع حين يوجز وإلى الجاحظ حين

يسهب، فهو في إيجازه دقيق العبارة جيد التقسيم، صادق التشبيه، بارع الدلالة، وهو في إسهابه كالبحر الزاهر بجيش ويهدر ويرتمي بالقول كيف شاء، مع نصوع وإمتاع لذيذ، كيف جاز لمؤرخي العصر أن يحكموا على الرجل بما كتب في عهد اليفاعة، وأن يغمضوا عيونهم عن آخر ما أحدث في سجل التأليف؟ إن الذي فات هؤلاء السادة كابراً عن كابر لم يفت الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد حين تحدث عن محمد المويلحي فقال فيما قال(١):

(إن المويلحي الصغير ـ يريد محمداً أما الكبير فوالده إبراهيم، وقد أصبح أكبر المويلحيين في العصر الحاضر ـ إنما يذكر بحديث عيسى، وقلما يذكر بكتابه الآخر عن علاج النفس وهو على هذا طبقة في بابه لا تقتصر على طبقة عيسى بن هشام في بابه، ولكن مزية هذا أنه فاتحة «منفردة» في الأدب العربي الحديث تذكر بها حقبة كاملة سجلها فابدع في صدق تسجيله وحسن تمثيله، وكان فيها الكفاية لذكر كاتبها بين الرعيل الأول من روّاد عصره، وما بعد عصره من عصور الآداب العربية المقبلة، وسيظل هذا الكتاب نموذجاً يقتدى به من يطلب التجديد، ويتعلم الابتداء به على نهجه القويم، فهو مثال في النقد الاجتماعي، يضارع ابلغ المثل في الآداب

---

(١) أدباء عرفتهم ـ كتاب الهلال ص ٧٨ للعقاد.

الأوروبية المعاصرة، ولكن المؤلف لم يقطعه مبتوراً من جذوره بموطنه ليغرسه غريباً بين مواطن الضاد على غير منبته، بل تناول جذور المقامة العربية فأقامه عليها، وأحسن تناولها وإقامتها لفظاً ومعنى، فهو مقامة يرتضيها بديع الزمان، ومنهج من النقد العصري يرتضيه (سويفت) و (لي هنت) و(هايني) و (أناتول فرانس) ا. هـ.

وإذن فقد أشار العقاد للكتابين، واعتذر لمن أغفلوا الحديث عن علاج النفس بأن حديث عيسى بن هشام كان فاتحة منفردة من الأدب العربي يسجل اسم مؤلفه في طليعة الروّاد! وأخال هذا الاعتذار لا يبرر إهمال الحديث عن علاج النفس، لأن صاحب هذه الفاتحة الباهرة قد ترك أسلوبها إلى نمط آخر كان اطراداً طبيعياً توجيه طبيعة التطور للكتاب في الثلث الأول من هذا القرن! أفيجوز لنا أن نتحدث عن الرجل وكأنه قد ودّع الحياة بعد تأليف حديث عيسى مباشرة؟ مع أنه ظل دؤوباً يكتب وينقد ويوجه! وهو من هو لدى القارئين! أكتب الكتاب[1].

إن اقتصار المتحدثين عن المويلحي على كتاب (حديث

---

(١) كما يقول حافظ في رثائه:

دمعة من دموع عهد الشباب ... كنت خبأتها ليوم المصاب
ليت اليوم يا محمد لما ... راعني نعي أكتب الكتاب

عيسى بن هشام) قد أعطى انطباعاً لدى الناس بأن محمد المويلحي لم يكتب شيئاً بعده، وما أظن القارئ بناقد واسع الاطلاع بنحو هذا المنحى، فقد تعرّض الدكتور زكي مبارك إلى شائعة ذاعت عن كتاب حديث عيسى بن هشام، فحواها أن إبراهيم المويلحي الوالد هو الذي يكتب بتوقيع نجله محمد، فقال في تبرير هذه الشائعة[1]:

(ولهذه الشبهة أصل، فقد سكت محمد بعد موت أبيه سكوت المريب فتقول الناس عليه الأقاويل وظنوا أدبه من الصنف المدخول، وقوى الشبهة أنه استغضب، فلم يغضب، ولو كانت التهمة باطلة لثار وهاج، وفعل بخصومه الأفاعيل).

وقول الدكتور أن المويلحي قد سكت بعد موت أبيه سكون المريب يحتاج إلى تصحيح. فأنا قرأت له في مجلة المقتطف فصولاً من النقد. كما قرأت له مقدمات لبعض الآثار الأدبية الشهيرة كمقدمته لنهج البردة لشوقي التي انفردت بكتاب يضم شرح العلامة الشيخ سليم البشري للقصيدة، كما قرأت له مقدمة لكتاب (من والد إلى ولده) للأستاذ أحمد حافظ عوض، وقد تعرّض الأستاذ إبراهيم المويلحي إلى دحض مقالة الدكتور مبارك فاثبت من واقع مصباح الشرق وما

---

(١) مجلة الرسالة العدد ٤٨٦ بتاريخ ١٩٤٢/١٠/٢٦.

يدل على أن الكاتب محمد المويلحي لا والده ثم اتبع ذلك بقوله[1]:

(ولم يعتزل محمد بك الكتابة كلية بعد موت أبيه كما قال الدكتور وإنما اعتزلها حيناً من الدهر حين اشتغل مديراً للأوقاف العمومية بعد مديرها أحمد شفيق باشا، ومع كل فقد كان ينشر في الصحف اليومية المقالات الضافية في المناسبات الهامة، كما ذكر بنفسه ذلك في المؤيد بتاريخ ٩ من فبراير سنة ١٩٠٨، تحت عنوان (كلمة مفروضة) وكان الكلام يدور حول منع نصب تمثال (دانتي الإيطالي) في مدينة الإسكندرية، ولا يفوتني ذكر مقالته (صوت من العزلة) التي افتتح بها الأهرام صحيفته في ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٢١ وفيها يذكر سبب عزلته ويرحب باتحاد الأحزاب في مصر، وما في الاتحاد من عزة الشرق).

وقد فات الأستاذ إبراهيم أن يذكر **(علاج النفس)** وقد طبع قبل تعقيبه بأكثر من عشر سنوات، على أن الذي فات الدكتور مبارك أجل وأكبر مما فات الأستاذ إبراهيم، فقد كان عليه ـ وهو الناقد الصوال ـ أن يحكم في القضية من جهة فنية، فيستعرض أسلوب المويلحي الكبير في حديث

---

(١) مجلة الرسالة العدد ٤٨٦ بتاريخ ١٩٤٢/١٠/٢٦

موسى بن عصام مقارناً بإسلوب المويلحي الصغير في حديث عيسى بن هشام ليجد الفرق بين الكاتبين أوضح من أن يشتبه فيه الدليل، فمع ألمعية المويلحي الكبير نجده أشبه بالخطيب في منحاه، أما المويلحي الصغير، فهو الكاتب المصور حقاً، يتغلغل في الخفايا، ويتعمق في الأسباب، حتى إذا بلغ من ذلك ما أراد اتجه إلى الصورة المشخصة والفكاهة المطربة، والموسيقى الناعمة، فكان واحد فنه! ولسنا بذلك نضائل من براعة المويلحي الكبير فقد كان من أفذاذ العصر وساسته الدهاة، ولكننا وجدنا باطلاً يحاك، وإيهاماً يفترى فعزّ علينا أن نسكت عن الحق الصريح.

وقد كان الأستاذ العقاد أكثر إصابة وأبلغ نفاذاً إذ حكى الشبهة الظالمة مبيناً دوافعها الشخصية حين ذكر أن صاحب مجلة الصاعقة الأستاذ أحمد فؤاد هو الذي افترى الفرية، وقد لاقى جزاءه الصارم من المويلحي الكبير، إذ دبر له مكيدة أدت إلى سجنه وامتهانه بالآستانة، أما محمد المويلحي فقد ترفع عن الرد المنتظر إذ كان كما قال العقاد، أقرب إلى عزلة التصوّف، وترفع الوجاهة والأمارة، فلم يكن يعنيه من أحاديث أحمد فؤاد وأمثاله إلا أن يعقب عليها بنكتة لاذعة، أو سخرية واسعة، ونسميها بالسخرية الواسعة لأنها كانت تتسع حتى تشمل السخرية بالشهرة الأدبية ذاتها، فماذا لو لم

يكن المويلحي الصغير كاتب عيسى بن هشام؟ أو كاتباً على الإطلاق، وذلك خطب هين كما كان المويلحي الصغير يقول، ولم يكن في الواقع يبالغ في تكلف السخرية بالشهرة الأدبية، لأنه كان يرتضي لنفسه منزلة أحب إليه، وأرفع عنده من منزلة الأديب الصحفي المشهور، وهي منزلة الوجيه الحكيم العزوف عن الدنيا والناس).

منزلة الوجيه الحكيم!

إذا كان المراد بالوجاهة سؤدد النفس وبالحكمة مراعاة المنطق في السلوك الذاتي، فالمويلحي هو الوجيه الحكيم حقاً، والعقاد مصيب في اهتدائه إلى مفتاح شخصيته الصحيح.

كان محمد المويلحي ذا سؤدد أصيل بين أصحاب السؤدد الدخيل، إذا كان أبياً عيوفاً، ينأى عن مواقف الزلفى، ويضع نفسه موضع القدوة المصطفاة بين الأمثال ولم يكن ليسمع لنفسه أن يمالئ أميراً أو رئيساً في وقت كانت الصحافة لساناً متحيزاً للرؤساء. وكانت مواقفه المثالية تدعو ذوي الأمر إلى مجافاته ومخاشنته، ثم إلى إيصاد منافذ الرزق والحلال في وجهه، وهو يتلذذ بالحرمان تلذذ غيره بالعطاء، ويرى في الصبر على الفاقة وإظهار التجمل مسلكاً لا محيد عنه، وكم كلفه التجمل للنظراء والتجلّد للحاسدين من فوادح قاسية في

التزام المظهر اللائق، والبروز في مواقف الاستعلاء الأشم، وقد لاقى من نفسه عناء في سبيل إخضاعها لمبادئه المصطفاة، وهي كالجواد تأرن عليه، وتستعصي على الشكيمة فتزيده رهقاً وتبريحاً، وما زال مستعضماً بالحيلة والاحتمال حتى ملك الزمام فاصبح سيد نفسه، وقد رأى أن يسجل جهاده الشاق في صراع النفس الأمارة بالسوء لترجع إلى الاعتدال وتعتصم بالسنن السوي في كتابه علاج النفس إذ أخذ وهو المريض الرازح تحت نير الصراع المحتدم يطب لنفسه قارئاً دارساً مجرباً حتى أمكنته الدراسة المتتالية من بلسم يبرئ الجراح، وقد ذكر في مقدمة الكتاب أنه جعل منه درساً في تقويم النفس وأنه حين يقدمه للقارئ لا يقدم أمراً ملزماً من طبيب، بل دواء مجرباً من مريض إلى مريض ومن عاجز إلى مستفيد، والرجل صادق لا يتكلّف التواضع، والواقف على حياة الكاتب الكبير يرى في علاج النفس صدى هذه الحياة، ويكاد يلمس الفصول والأغراض من واقع الممارسة الذاتية التي كابدها الكاتب الكبير! وقد تحدث في كتابه عن الغضب وعن ساعات الحياة وعن كدر النفس وعن المعروف وعن السمعة والشرف وعن فضيلة الشفقة وعن حب الصيت والذكر، وهذه هي أبواب الكتاب بعد تمهيد علمي يتحدث عن بساطة الفلسفة!

تحدث في أوائل الكتاب عن الغضب فأطال، وإني لأجده في هذا الحديث قد بذل جهداً جاهداً حتى استوت له

جميع معانيه، إذ تعاونت القراءة المتصلة، والتجربة المريرة على رفده السخي بأجل الخواطر، وأصدق الحقائق، وقد قال رحمه الله في خاتمته:

«وجدير بالذكر أن الغضب إذا ابتدأ في النفس ولم يتداركه الإنسان بفضل عقله اشتعل اشتعال الحريق واندفع اندفاع السبيل، واخترق النفس اختراق الصاعقة للمادة، فلا تتوهمن أنك تضع له حداً، أو تعتصر منه على مقدار، أو تستطيع أن تمحوه محوًا، بل تستطيع بطول الممارسة والتفكير أن تتغلب عليه. وإن أردت أن تطهر أخلاقك من رذيلة الغضب فاقرأ ما جمعته وعاود قراءته المرة بعد المرة، ليكون على الدوام في ذاكرتك فيردّك بإذن الله عن الاندفاع في سورة الغضب، وقد جربت ذلك بنفسي فكلما همّت النفس الأمارة بالسوء أن تغضب لشيء مما يغضب له الناس، ذكرتها بما جمعته من البراهين في رذيلة الغضب، وأفهمتها أنه لا يليق بالذي يسطرها ويشرحها أن يستفزه الغضب»[1].

أرأيت أثر المكابدة الشاقة والمعاناة المريرة بين الغريزة والعقل؟! ونحن نعلم أن المويلحي قد أمتحن ببلاء يطيش له لب الحليم، حين تعرّض له سفيه من السفهاء فلطمه على

---

(١) يريد تستطع بسهولة ليصح السياق.

وجهه، وكان من واجب رجال الصحافة والعلم أن يستنكروا ما صنعه هذا السفيه الرقيع من أولاد من كانوا يعرفون بالذوات، ولكن جريدة المؤيد أخذت في أمد طويل تهول في الحادثة تشفياً من المويلحي وتسمى العام عام الكف، وتدعو الناظمين وأشباه الشعراء وساقطي المروءات إلى هجاء الكاتب والنيل منه استهزاء وسخرية حتى فاضت أنهارها بهراء يبرأ منه الخلق والأدب والدين ومن المؤسف أن شاعراً كإسماعيل صبري قد جارى السفهاء فاستجاب للمؤيد، وأخذ ينظم المقطوعة تلو المقطوعة في هذا الهذر السفيه، فكان الكبير بسقطته صغيراً صغيراً، حتى ساوى ذلك الأميّ الجهول الذي قال فيما قال:

أي كـف رنـت بـآفـاق مـصـر

فـسـمـعـنـا دويـهـا فـي الـصـعـيـد

والذي يتوهم أن مصر شيء والصعيد شيء آخر هو عامي ابله، يعتقد أن مصر هي القاهرة وحدها، فعلام يتصدى لهجو المويلحي شفاء لغيظ سواه! وقد ظل أثر هذا الموقف عنيفاً في نفس المويلحي، يلوح لقارئه في علاج النفس في أكثر الصفحات، وإني لأراه وحده باعثاً لمثل قوله في باب الغضب(١).

---

(١) علاج النفس ص ٥٠.

أما الانتقام فهو مما يترفع العاقل عنه، وإن كان يتناول معنى العادلة، وهو لا يختلف عن بادرة الغضب إلا بمضي الزمن في التربص له، وكيفما خف الانتقام ولطف فإنه لا يفترق عن الإساءة والأضرار إلا بالتماس العذر لفاعله، لطم أحد الناس حكيماً من الحكماء في طريقه، فلما رجع يعتذر إليه عن اللطمة، قال له الحكيم: فيم الاعتذار؟ ما أذكر أنك لطمتني، فرأى بحكمته أن تناسى الإساءة والتغافل عنها أجمل في النفس من ذكرها، وأفضل من الانتقام لها، وأرقى من العفو عنها، ولقائل أن يقول: أما وجد الحكيم حرجاً ومضضاً في نفسه، من وقوع تلك اللطمة عليه، فنقول: كلا بل وجد ارتياحاً وانشراحاً، لأن النفس العظيمة يزدهيها أن تحتقر الإساءة ومن صدرت عنه. وأشفى من الانتقام وأعظم منه أن يحس المسيء إليك أنه ليس أهلاً لأن يستفزك الغضب عليه، وكم منتقم لأنه صغير، جرد الانتقام إلى أمور عظيمة وأضرار بليغة. فلنترفع ولنتكرّم. ولنفعل ما يفعله ملك الضواري إذ رنّ في أذنه عواء الأكلب الغضف، لم يطرف نحوها بعينه ولم يلتفت إليها بعنقه. فإذا قلت إن الانتقام يوجب الاحترام والتوقير، قلنا: «إن أردت أن تستعمل الانتقام كالدواء، فلا حاجة إلى إضافة الغضب إليه. ولا ضرورة لأن ترى فيه ارتياحاً واستشفاء، وحسبك أن تعتبره فعلاً نافعاً»[1].

(١) علاج النفس ص ٢٣.

كما أجد هذا الحدث الخسيس باعثاً لمثل قوله بعد عدة صفحات:

«والنفس العظيمة التي تعرف قدرها، وتدرك كرامتها. لا تتأثر بالإساءة، ولا تكاد تحسها. فالانتقام مفقود لديها، لأن مالاً يحس لا ينتقم له. والنفس العظيمة تشبه الصخرة الصماء. لا يؤثر فيها ما ترميها به من الحصباء، وكالمجن، يرد السهم مكسوراً، والسيف مغلولاً، والحوادث وإن عظمت لا تحرك النفس العظيمة، لأنها فوق الحوادث والخطوب، فما أبعدها عن ملامستها، وأنآها عن تأثيرها، فما هنا إلا النفوس العظيمة»[1].

كدت أقول للمويلحي أن ما يطلبه يفوق طبيعة البشر جميعاً، ولكنني وجدت أن الحكم على إطلاقه العام هنا يدعو إلى الشطط، ففي النفوس أفذاذ سمت عن شهوة الانتقام فارتقت إلى ما يريده الكاتب الأخلاقي الكبير، بدليل أن الله عزّ وجلّ قد نظر إلى العامة حين قال ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ (الشورى: ٤١). ثم نظر إلى خاصة الخاصة حين قال ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ (الشورى: ٤٣). فالمويلحي هنا في قوله الكلامي وفي سلوكه الفعلي من ذوي العزم.

---

(١) علاج النفس ص ٤٦.

وأجمل ما يبهرك لدى من يتحدثون عن الأخلاق من رجال الأدب أنهم يبهرونك بما يبدعون من بيان، فتستوي عندهم كفتا الإقناع والإمتاع معاً. حين يصدرون عن فكر أصيل ووجدان نبيل، وفرق بعيد أن تقرأ في مسائل الأخلاق لابن مسكويه في تهذيب الأخلاق وأبي الحسن الماوردي في أدب الدنيا والدين على يبوسة الأول ويسر الثاني وبين أن تقرأ في هذه المسائل عينها لابن المقفع في الأدبين الكبير والصغير، وللمويلحي في علاج النفس، فأنت مع الأولين تعاني صعاباً، وتكاد تحل رموز لدى ابن مسكويه فإذا فرغت منهما فقد ارتحت من عبء ثقيل، وأنت مع الآخرين في سهل دمث ينتهي بك إلى روضة معطار، فإذا فرغت منهما عاودك الحنين للمراجعة والتكرار، ورجال القلم يظلمون أنفسهم حين لا يتوجهون إلى حقائق النفس في علوم الخلاق والاجتماع والسياسة والتاريخ بالكتابة والتحليل لأنهم أقدر من سواهم على الجلاء والوضوح، وإذا فات بعضهم عمق الغوص فلدي الكثرة منهم في صدق الحدس، وجيد الافتراض ولطف الاستشفاف ما يسد وجوه النقصان! كم كان يكسب علم الأخلاق لو تناوله كاتب كبير كالجاحظ بمثل ما تناول به الحسد، الحاسدين في فصل من فصول رسائله العذاب! وكم كان يخسر علم الأخلاق لو لم يخط محمد المويلحي كتابه الأصيل، استمع إلى بعض ما افتتح به حديثه عن الغضب إذ قال:

«الغضب أبشع أمراض النفس، كما أن الجذام أبشع أمراض الجسم، والغضبان يشترك مع المجذوم في تشويه الوجه، وطمس معالم حسنه، وإنك لو نظرت إلى الغضبان وهو في اختلاط عقله، واختباط جسمه، وتقلص شفته، وبحة صوته، وازدحام أنفاسه، واحتدام وجهه، وانتفاخ أوداجه، وارتعاش يده، واضطراب عصبه، وخفقان قلبه، وغليان دمه، وقذف فمه بالزبد، وعينه بالشرر، لحكمت حكماً قاطعاً بأن الجنون أسلم عقبى، وأقرب منه للحسنى، ولو أبصر الغضبان وجهه في المرآة، وهو على هذه الصورة المنكرة التي تقذي العيون بالنظر إليها لاستحيا من نفسه، ولخجل ممن يراه»[1].

أرأيت إلى الكاتب المصور هل ترك نأمة نفس داخلية أو معلم انفعال خارجي دون أن يفصح عنهما في تسلسل وانسجام؟ وماذا نطلب من البيان غير هذا الإبداع؟

ونقدم لمن يظنون في قوة الصياغة إجحافاً بالمعنى الدقيق، والجدل المحكّم، هذه المناقشة التي أدارها المويلحي حول ما يتوهم من فائدة الغضب في بعض المواقف، حيث ذهب بعض المفكرين إلى أن للغضب مواضع يجب استعمال جزء منه فيها لأنه في رأيهم يبعث الحمية في النفس، ويدفع بالمرء إلى اقتحام المخاطر في

---

(١) ص ١٤.

الحروب كما أن في قدرة العاقل أن يقف من الغضب عند الحد الذي يريد فلا يتعداه وهذه كلها تعلات يرفضها المويلحي بمنطقة الحاسم حين يقول ببعض التصرف اليسير.

«إن الغضب شر، والوقوع في جزء منه يبعث على الوقوع فيه كله، لأن من لم يقدر على حماية نفسه من الوقوع فيه وهو خلو منه، لا يقدر على وقفه عند حد محدود. فإنه إذا خالط النفس اصبح آمراً لا مأموراً، وحاكماً لا محكوماً، والعقل الذي ألقت إليه النفس مقاليدها وسلمته زمامها لا يقوم بعمله إلا إذا تغلب على الأهواء النفسية، أما إذا اختلطت به فلا يقدر على قيادة النفس في طريق الحكمة لوجود مشارك له مناهض في قيادته، فمن الأمور ما يكون تحت حكمنا ثم نصبح تحت حكمه، مثل كلمة السوء إذا لم تتكلم بها ملكتها، وإذا تكلمت بها ملكتك، وكالمرء يكون مالكاً نفسه على شفا الهاوية فإذا سقط فيها استحال عليه أن يقف أثناء سقوطه، وكالقوم يزحف العدو على حدود بلادهم ويكون في طاقتهم صده عنها فيتهاونون بأمره حتى يلجّ الأسوار فلا يملكون له دفعاً، وهذا مثال الغضب، فإنك إذا دفعته قبل أن يخالطك نجوت منه وإذا لم تدفعه ملكك[1].

---

(١) ص ١٨.

ويتجه الكاتب إلى تفنيد فائدة الغضب المزعومة في معارك القتال فينقل قول أرسطوا في تحبيذه معقباً برأي غيره في تفنيد كلامه ومضيفاً إلى رد صاحبه ما فتح الله به عليه في مثل قوله:

«فإذا قلت أن للغضب ضرورة في ساحة القتال، قلت لك إن جاز أن تسند إليه الضرورة فضرورته أبعد ما تكون عن القتال، فليس يتطلب القتال حدة عمياء، بل يتطلب شجاعة مهذبة بالنظام والتثقيف، أليس الغضب هو الذي يجعل المحاربين المتوحشين أحط درجات في ميدان الحرب أمام الجيوش المنظمة المدربة، وأكثر إلقاء بأيديهم إلى التهلكة، وثقافة المصارع تقيه، وغضبه يرديه، فما ضرورة الغضب إذن لأمر ينال بالعقل والتدبير، أترى أن القانص الذي يرصد قنيصته ليصيبها، أو يعدو وراءها ليصيدها يكون به شيء من الغضب عليها يساعده على اقتناصها؟ كلا! كذلك المقاتل لا يحتاج إلى شيء من الغضب يساعده على القتال، فالعقل وحده هو الذي يهديه، والغضب بعيد عن الهدى[1].

وهذا كلام له وجاهته دون شك، ولكني أميل إلى مخالفته. لأن المفروض في الحرب المشروعة التي تؤيدها

---

(١) ص ١٩.

قوانين الخلاق الفاضلة أن تكون مدعاة لإصلاح فساد، وسعياً في ردع اعتداء، فإذا غضب المحارب الشريف لانتهاك الحرمات كان ذلك داعياً له إلى الاستبسال، وكان مبدؤه الخلقي مثار حمية نبيلة وغضبة شريفة، ولعلّي قرأت في بعض الآثار هذه الحكمة التي تقول «من استغضب فلم يغضب فهو جبان» فالغضب مشروع في مواقف الاستبسال ورد العدوان، وإذا اعتل المويلحي بأن نداء الواجب وحده يقوم أكبر مقام في إثارة الاستبسال فأنا نقول له أن النفس البشرية ذات آلات دقيقة تفرز المشاعر والأحاسيس تلقائياً، فإذا بعثت هذه المشاعر ثوائر الغضب في موقفه الصادقة، فقد ساعدت صاحبها على الجرأة والاقتحام، والمؤمنون يستعيذون بالله من غضبه وانتقامه، فإذا جاز أن يسند الغضب للرءوف الرحيم فهو مما يجوز أن يسند لقوم يتخلقون بأخلاق الله وهم المؤمنون.

وتتابع الفصول بعد حديث الغضب حاملة مثالية المويلحي في كل ما يصدر عنه من الآراء، فهو من الفلاسفة القلائل الذين يحاولون أن يرتفعوا بالواقع إلى أفق أرفع، وليس ممن يقدر للضرورة الملزمة مكانها في تبرير الهنات وتهوين السقطات، بل يربا بالإنسان الكامل بعد جهاده الشاق أن يخضع لضرورة تلجئه إلى الاعتذار، فالتبرير، ويريد منه أن

يكون بعيداً عن الشوائب إذ ينتصر على مسارب الدماء في نفسه، وخوالج الرغبات في مشتبهاته ليصبح رجل إرادة فولاذية وصاحب عزم حديدي، وإنه ليضرب المثل في ذلك بالواقع المحسوس حين يرى في مقدور بعض الناس أن يأتوا بأعمال جسيمة مستغربة فمنهم من يحاول الوقوف على رجل واحدة يوماً أو أياماً، ومنهم من يمد ذراعه نهاره الأطول فلا يطويه، ومنهم من يمشي على الحبل الضئيل وقد علّق في الهواء بين ساريتين، ومنهم من يطوي البسيطة سيراً على الأقدام، ومن يغوص في أعماق البحار ممتنعاً عن التنفس، أفيجوز لهؤلاء وأمثالهم أن ينتصروا على أنفسهم في أشياء ليست في أكثرها بذات بال، ثم لا يجوز لعاقل أن ينتصر على نفسه حين تدعوه إلى الهبوط فيرغمها على الصعود!
هكذا صار المويلحي مثالياً في نظرته كما كان مثالياً في واقع حياته، إذ أنف من المجاملة الكاذبة فاعتزل المنصب، وقبع في بيته متبلغاً بالكفاف[1] حتى كان يقضي الشهور الطويلة دون أن يزور أحداً، وحتى كان العيش والملح بعض طعامه في كثير من الأزمات، ولو شاء لارتزق بقلمه فنال ما يرفعه إلى مستوى الناعمين المترفين، ولكن الرجل كان من صدره الرحب مستظلاً بفردوس ناضر في أعمق أعماقه وإذا صوحت

---

(١) الرسالة العدد ٤٨٦ للدكتور زكي مبارك.

بعض أزاهيره تحت سطوة السموم المحرقة فكثير من جذورها الموغلة تمتاح من قليب عذب نمير، فتظل حية تتوثب في هوج الأعاصير، هذه المثالية فرضت نفسها على الكتاب في إصرار ملح عنيف.

ونتكلّف الصعب حين نستعرض أبواب الكتاب في هذا المجال المحدود ولكنا نجتزىء بما كتبه المؤلف القدير تحت عنوان (المعروف) إذ سمت به عواطفه إلى أرقى ما يتخيل قارئ يطالع حقائق الأخلاق في كتاب علمي هادف، وقد تناسى المؤلف لهمامة نفسه لوم الجاحد، حين ينكر المعروف، ويعق صاحب اليد البيضاء في حياته، وما كان له أن يتناسى لو تقيّد بما يتقيّد به الواقعيون، بل دفعته مثاليته إلى أن يقع باللوم على المعطى أولاً، وإلى أن يفصل مناحي الملامة تفصيلاً لا يصدر عن غير أديب رقيق الحس، دقيق الرصد قوي الشعور، وإلى القارئ بعض ما قال:

«إن في طريقة الإعطاء في بعض الأحيان إغراء وتحريضا على الكفران، فتارة يظهر علينا الامتعاض والتكره عند صنع المعروف، وتارة نذكر المسدى إليه برد المعروف والربا عليه، وتارة يعترينا الندم بعد إسدائه ونطالب (لعلها تقابل) السدى إليه بوجه غير مرضي، ونظر مشوب بالاعتلاء، فيتكدر الصفاء وتنقبض النفس فنحن الذين نميت الشكران بأيدينا، ونبعث

النكران بعد إسداء المعروف بل أبان إسدائه، فمن منا الذي أجاب القاصد لأول رجاء وأعطى الملتمس لأول سؤال؟ ومن منا لم يقطب جبينه ويلو عنقه ويتعلل بكثرة اشغاله ويطاول في الحديث حتى لا تكون فرصة لصاحب الحاجة أن يكاشف بحاجته؟ ومن منا لم يتحيل للتخلص منه كأن يستقدم إلى مجلسه من يخجل الطالب أن يبوح بطلبته أمامه مثلاً، حتى إذا ضاقت الحيل ولم يكن بد من سماع الطلب، فأما أن نجيب بالوعد أولاً، وهو نوع من الرفض، وأما أن نعطي مع التعبيس والتقطيب والكره والتأفف فهل تنتظر بعد هذا شكراناً خالصاً؟ وقد أخذ صاحب الحاجة ما أخذه منك انتزاعاً واغتصاباً لا إسداء وإعطاء»[1].

ليت شعري أتنهل بهذه الخواطر نفس لم تكن من طراز نادر غريب! إنها نفس المويلحي التي تابعت تحليقها السابح في أفق التسامح والاستعلاء مرفرفة بجناحها الضخم على عالم يشع بالخير والحب والجمال فانطلقت تتابع نصحها السديد حين تقول:

«ما نكس الرأس سائل وتلعثم له لسان إلا لشعوره بذل موقفه، ومهما تعجل بالعطاء بعد السؤال فإنك لا تبرأ من نسبة

---

(١) ص ٨٩.

التقاعد عن معونة صاحبك حين أكرهته على مرارة السؤال، فمن الواجب أن نحس حاجته وهي في نفسه قبل أن يكاشفك بها حتى إذا أدركت حاجته وهي في خفائها أزلت ما به من مضاضة التردد بين الإقدام والأحجام، فإذا سبقك إلى السؤال فعليك بقطع كلامه كراهة أن تطيل ذلك الموقف، موقف الاستعداد والاستجداء وبادر ما استطعت إلى إجابة سؤاله بحالة يشعر معها بمسابقة ضميرك إلى إسداء المعروف»[١].

ثم يقول متابعاً مروءته الرقيقة:

«وعليك أن تضم إلى بشاشة الوجه وارتياح النفس عند إسداء المعروف لطف العتب على صاحبك لتقاعده عن قصدك إلى ذلك الحين كأن تقول له: «إني لا أغفر لك ترددك في طلب حاجتك كما أنني أشكرك أن خصصتني بها من دون أصحابك لحسن ظنك بي، وثقتك بحسن مودتي، واعلم أنني منذ اليوم رهن أمرك فيما تكلفني إياه من خدمة، ولقد سامحتك في استتارك مني بستار الخجل والحياء عند الطلب في هذه المرة، فإنك إن فعلت في ذلك زدت في مقدار الصنيعة وأسست في قلب صاحبك ركناً من الشكر والحمد لا يهدمه التسيب ولا يؤدي به الزمان»[٢].

---

(١) ص ٩٦.

(٢) ص ٩٧.

كدت أقول أن المويلحي في ذلك نسيج وحده، ولكني أعرف أنه من أمة كان الكرم من ابرز خصائصها وأن صفحات المستجاد من فعلات الأجواد تقدم عشرات النماذج لمن ورثوا مآثر حاتم طيء وكعب ومعن وعبد الله بن جعفر، وأبي دلف العجلي والأسود بن قنان، فهو إذن لا يخاطب قارئه من مكان بعيد، بل يخاطبه بما يجد مثاله من صنائع أجداده السالفين.

وفي الكتاب ما يشير ببعض التعارض، وهو مما لا يخلو منه كتاب بشرى، وهل فرغنا من إيضاح مزايا علاج النفس على وضوحها الساطع حتى نبحث عن المآخذ الضئيلة بمجهر مكبر، لنقدر على رؤيتها إن وجدت، ثم لنحاول تضخيمها، وكأننا نرانا أنداد لمصاولة علم من أعلام العربية يحفظ له تاريخها الأدبي مكان القيادة وموضوع التوقير.

أ. د. محمد رجب البيومي

علاج النفس

بقلم الأستاذ: الجليل إسماعيل شيرين بك

«رحمه الله»

بسم الله الرحمن الرحيم، وإليه توسلي وعليه توكلي.

أما بعد فهذا كتاب في فنون الحكمة، وضروب رياضة النفس، وضعه الحكيم المرحوم السيد محمد المويلحي بك، يقصد به إلى تهذيب النفس ورياضتها وحثها على استكمال حاجتها من الأخلاق الفاضلة والتربية القويمة، وقد وفقه الله في فلسفته كما وفقه في أدبه فجاء الكتاب بفنونه المتعددة وموضوعاته المتشعبة، مما يذاق ويصاغ ومما تشد الأيدي عليه، ويحج إليه، وكان من خير التحف والألطاف، ومن أنفس الجواهر والأعلاق، ولا عجب فالسيد المويلحي رحمة الله عليه وهو حجة في أدب القلم وأدب النفس منحدر من الصلبين الطاهرين فهو من نسل الصادق والصديق، وأنعم بآبائه وبنسبه العريق، وأكرم بهذا السبب الوثيق، وهنيئاً له الشرفان شرف الدنيا وشرف الآخرة.

والمويلحي هو من تعلم في سمو النفس، وقوة الإرادة، والكبر عما يشين، إلى تأدب بما أنزل على المصطفى عليه الصلاة والسلام من كريم القول وبليغ الكلام.

فلو أنه كان في القرون الأولى، وشاء أن يضرب الجزية على الصاحب بن عباد، والخوارزمي، والبديع، لما تلكأوا في الدفع، ولا دفعوا رآسته بالمنع، ولبايعوه إماماً وتوجوه أميراً وساروا في ركابه، واجتمعوا في رحابه.

ولقد كانت البلاغة في العصر الحديث في حاجة إلى مثل محمد المويلحي الذي جدد شبابها، وألبسها جلبابها، وقد كانت شمطاء عارية، عيوبها بادية، فما زال بها يؤاسيها ويسليها ويتوجع من أجلها حتى خلقها الله خلقاً جديداً على يده ويد والده وأستاذه المرحوم السيد إبراهيم المويلحي سيد كتاب العربية في عهدنا والعهود الماضية إلى الجاحظ.

وكان صاحب (علاج النفس) أمة وحده لا يغتاب ولا ينم، وللكرامة عنده المقام الأول. فما رؤى في موضع يزري بالشرف، أو ينافي الكرامة، وكان له حسن ذوق، ولطف حس، في كل شيء، في حديثه، في اختيار أصحابه، في لباسه، حتى في طعامه وشرابه، وكان جليداً، صلباً، صبوراً، قاسياً على نفسه إلى حد لا يطاق الصبر عليه، وما ظنك برجل عكف في بيته حولاً كاملاً لأن يده لا تطول، ولو شاء

أن يلعب بالذهب لتم له ذلك، ولكنه لم يكن يحب أن يتطول عليه صديق بيد له عنده أو عارفة يسديها إليه.

هذا هو السيد محمد المويلحي وما خفي من جوانب الرحمة فيه وصدق القول، والوفاء للأصدقاء أكثر مما كان ظهر للناس، وكان رحمه الله يستحيي إلى حد الخجل من الثناء، فما أجدر شباب اليوم أن يتحلوا بسجاياه، وأن يباركوه في قبره بطلب الرحمة له، فقد كان في سمو الروح أسوة، وفي علو النفس قدوة.

وإن تك أفنته الليالي وأوشكت
فإن له ذكراً سيفني اللياليا

إسماعيل شيرين

تمهيد

هذه رسالات في الأخلاق، لعلاج النفس، وطيب العيش، حتى تتسنى لها سعادة الحياة. لم ننشئها من لدنا إنشاء، ولم نبتدعها من عندنا ابتداعاً، وإنما هي ضوء مقتبس اقتباس انقطاعنا إلى المطالعات في كتب الأوائل والأواخر من شرقيين وغربيين، وثمرة مجنية من مشاهدات الزمن، وتجارب الأيام، مما جعلناه لنفسنا درساً في تقوم النفس، عسى الله أن يكون قد نفعنا بها شيئاً قليلاً، والقليل في شفاء النفس كثير، ولا فضل لنا فيها إلا مثل فضل النحل، تجنى من أثمار الأشجار، وأكمام الأزهار، ما تحوله في بطونها، وتمجه للناس شهداً جنياً فيه شفاء للصدور، ونحن نعرضها اليوم على أعين الناس عسى أن ينتفعوا إن شاء الله منها بالشيء الكثير، وليس تقديمنا إياهم لهم، في منزلة أوامر الطبيب للطبيب، بل في منزل دواء مجرب، من مريض إلى مريض ومن عاجز مستزيد إلى طالب مستفيد.

محمد المويلحي

بساطة الفلسفة

وقع للحكمة والفلسفة بيننا ما وقع لسائر العلوم من الغموض والإبهام، والحشو والتعقيد، والزيادة والنقصان، واختفاء المتون تحت كثافة الشروح، فإذا جرى ذكر الفلسفة بين الناس يوماً عدوها علماً من العلوم الزائدة التي يشتغل بها بعض أفراد يختصون بها دون عامة الناس، ثم اختلفوا في ماهيتها، فمنهم من يراها أصلاً يتفرع عنه الألحاد والزندقة. ومنهم من يعتبرها آلة للشك وطريقة عوجاء سوفسطائية يقلب المشتغلون بها الحق باطلاً، والباطل حقاً، كما يشتهون، بسعة احتيالهم في صناعة البرهان. والحقيقة أنها ليست في شيء مما قرت عليه ظنون الناس وأوهامهم فيها، وأنها هي العلم الواضح، والنور الساطع، الذي يهتدى به الإنسان إلى سعادته ويسترشد إلى جمال النظام في العمران، وهو علم عام لا تختص به فئة دون فئة، وفي قدرة كل إنسان أن يتناوله ويأخذ بأحكامه، وإن في نفس كل أمرىء لقبسا من الفلسفة وإن لم يكن فيلسوفاً، كما أن في نفس كل إنسان خيالاً من الشعر، وإن لم يكن شاعراً.

وينقسم هذا العلم إلى ثلاثة علوم: علم الآلهيات، وعلم الطبيعيات والرياضيات، وعلم الأخلاق. أما علم الآلهيات فخاص بالدين، وأما علم الطبيعيات والرياضيات فهو علم شائع معروف، وأما علم الأخلاق فهو سياسة النفس ورياضتها على الفضيلة، وهو أهم هذه الأقسام لتوقف سعادة الإنسان عليه في حياته.

ومما يغنينا عن الشرح والإسهاب، في أن أهم ما يطلبه الإنسان من الفلسفة هو الأخذ بفضائل الأخلاق ومحاسنها، والتخلي عن رذائلها ومساوئها، أن نذكر شيئاً من سيرة شيخ الفلاسفة، الذي بلغ درجات الكمال الإنساني بسياسة نفسه ورياضتها على الفضائل.

كان سقراط رجلاً نحاتاً للتماثيل في أول عمره، فبرع في صناعته، وفاق فيها الأقران، ولما بلغ الثلاثين من عمره، أحس من نفسه ميلاً إلى البحث عن الحقيقة، ينشدها أنى وجدها. وكفل له بعض أغنياء «أثينا» ما يكفيه مؤونة السعي وراء رزقه، فانقطع للدرس والبحث، حتى بلغ درجة عالية أرته أن مباحث الفلسفة بين العلماء في زمانه لا تكفي لتهذيب النفس وسعادة الحياة، لإنحصارها في أوليات العلل والأسباب، فصرف اجتهاده إلى أن ينزل بها، من المجردات إلى الموجودات، التي يسهل على الإنسان تناولها بحكم

الطبيعة، فقصر همه على علم الأخلاق، الذي يرشد الناس إلى سعادتهم في معيشتهم، بوقوفهم عند حدود الفطرة الغرزية، ومعرفة الحقائق، واستفظاع الرذائل، واستبشاع الأباطيل والأضاليل، وكف الأذى، ومقت الظلم، وحسن الطاعة للشرائع الوطنية، واحترام واجبات الإنسانية، ورياضة النفس على الصبر والتجلد، وكبح جماحها عن الاسترسال في الشهوات، والقناعة بالكفاف دون التهالك على الثروة والغنى، مع الشجاعة والإقدام على ما يدفع المنكر والمكروه عنها وعن الناس.

وكان القول عنده في الفلسفة مقروناً بالعمل، وتأدية الواجب، بخلاف الباحثين من أهل زمانه في الفلسفة، حتى أنه ترك دروسه ثلاث مرات، وانتظم جندياً في سلك الجند، لدفع العدو عن بلاده فكان محل الإعجاب لما أظهره من الشجاعة، ومما يذكر له في تلك المواقع التي شهدها، أنه رأى أحد الجنود في أيدي الأعداء مثخناً بالجراح، فقاتل عنه حتى انتزعه منهم، ولم يكتف بذلك بل نزع عن صدره شارة الشرف التي نالها لحسن بلائه، وحلي بها صدر الجريح ورآه أولى بها منه. ومن مواقفه أيضاً أنه بقي يقاتل حتى لم يبق من جيشه كله في ميدان القتال غيره مع القائد، ووجد في ساحة الميدان أحد القواد ساقطاً عن جواده، فحمله على كتفه حتى وضعه في مأمن.

تلك درجته في الصناعة، وهذه رتبته في الشجاعة، وإليك منزلته في الثبات للدفاع عن الحق، فمن ذلك أنه لما صار عضواً بالانتخاب في مجلس الشيوخ، ذهب مع أعضاء ذلك المجلس لرآسة اجتماع عام من أهل أثينا، عقدوه لمحاكمة بعض القواد، الذين انتصروا في موقعة بحرية انتصاراً مذكوراً، ولكن حالت العاصفة بينهم وبين دفن موتاهم، وكانت شريعة أثينا تقضي بحكم الإعدام على كل من يغفل دفن الموتى، فأرادوا تطبيق هذا الحكم على هذه الحادثة، فقام سقراط للأخذ بناصرهم وجعل يدافع عنهم ويظهر ما في هذا التطبيق من الخطأ الفاحش والظلم المبين، وبلغ من تهور العامة وتهوسهم في الإصرار على معاقبة أولئك القواد بالإعدام أنهم طلبوا أن يسري هذا الحكم على كل من يعارض في تنفيذ ذلك القانون. فدفعت سقراط شجاعته إلى الوقوف موقف المعارضة وحيداً في هذا الملتحم، غير مبال صياح العامة ولا مكترث لوعيدهم، وظل يناضل ويشهر بقسوة هذا الحكم الذي يضع من قدر من يعمل به ويلبسه ثوب الخزي والعار، ويسمه بميسم نكران الجميل لمن كانوا سبباً إلى إنقاذ الوطن ورد هجمات العدو عنه.

هذا مثال القاضي العادل في سقراط، ودونك مثال الرجل الحر بين أهل وطنه: تغلب أهل اسبارطه على أهل

أثينا، وأسقطوا فيهم حكومة الشورى، وأقاموا لهم حكومة استبداد مؤلفة من ثلاثين حاكماً، انتخبوهم من بين المترفين من أهل أثينا، فكان من بوادر أعمالهم، أن حظروا على سقراط درسه في تربية الشبان. فلم يثن ذلك من عزمه، بل قام في وجه وعيدهم غير مبال إياه، واستمر على تحريض الأمة لاسترداد حريتها وعزل هؤلاء الظلمة، ولم يرعه ما راعها من إطلاق يد الظلم فيها بالقتل والفتك، حتى ثارت بفضل ثباته على أولئك الحكام فقتلت منهم من قتلت، وطردت من طردت، وكان الرجل في أوقات تخليه عن الاشتغال بالمسائل العامة، يعيش بين الناس معيشة البساطة الفطرية، قاصرا همه على تعليم الشبان من أهل أثينا، ويرى أنه يخدم وطنه أحسن خدمة بحسن تهذيبهم وتربيتهم، وقد أخذ على نفسه أن يهدم ما رسخ في الأذهان من الأضاليل والأباطيل، التي تلحق العار بالنوع الإنساني. فما كان أجلّ منظره عندما كنت تراه يخطب الناس منتقداً أعمالهم مقبحاً أفعالهم داعياً إياهم إلى التعلق بالفضيلة من طريق الوقوف على الحقائق، وهو رجل فرد بين أمة ضالة لا جاه له ولا مال، غير متطلع إلى أطماع، ولا متطلب لدنيا. وعاش زمانه لا هم له إلا الوصول إلى هذا الغرض الجليل يسير فيه تارة بالحدة، وتارة باللين. على حسب ما يمله عليه حسن النظر وصواب الرأي في المنفعة العامة. ولم يكن كأمثاله من

العلماء الذين يتخذون لدروسهم مكاناً خاصاً، ووقتاً معيناً، بل كان يلقى على الناس دروس الفلسفة والحكمة، في الطرق المسلوكة، والأسواق العامة، وكان ينتهز كل فرصة لإرشاد القاضي في وظيفته، والحاكم في منصبه، والصانع في حرفته، والزارع في حراثته، وينزلهم منه عند النصح والإرشاد منزلة الأبناء والأخوة في الحنو والإشفاق، لا منزلة الطلبة، في خضوعهم للاستفادة والتعلم، وكان يستدرجهم في الحديث ويستجلبهم، فلا يشعرون إلا وقد بسطوا له ما تكنه صدورهم، من خفايا سيرتهم، ثم يتلقون عنه ما يغرس فيهم الاعتقاد، بأن سعادة الحياة بين كل الطبقات، لا تتم لأحد إلا بالعمل الصالح في نفسه، والعمل الصالح بين أهله وصحبه، والعمل الصالح بين أبناء جنسه، ومما كان يكرره على أسماع العامة في مواقفه بينهم قوله لهم:

«اعلموا أنكم إذا رضيتم أن تكونوا عبيداً للشهوات فلا سبيل لكم إلى الفضيلة التي تصعد بكم إلى معارج السعادة. ولا تأثير لصوت العقل والحكمة، إلا في النفوس الطاهرة، التي تسعى جهدها للتخلص من قيود الشهوات، ولا وصول إلى ذلك إلا بإطراح فضول العيش، بما لا حاجة إليه في الفطرة الطبيعية، فإذا بلغتم ذلك من أنفسكم بطول التفكر والتمرن، انجلت عنكم الشهوات هي التي تتغلب على

النفس، ولكن الجهل هو الذي يضعف النفوس ويذلها ويغلها في تلك القيود، فعليكم التغلب على سلطان الشهوات الذي يسلطه عليكم الوهم والجهل لتخرجوا من الظلمات إلى النور وتذوقوا حلاوة الفضيلة التي بها تمام السعادة».

ثم انتهى أمر سقراط، إلى ما ينتهي إليه أمر كل عالم فاضل بين نصراء الجهل وأهل الأهواء والأغراض، من الحسد له والحقد عليه والسعاية به، ليتخلصوا من عواقب نصحه، وإرشاده للناس، وكشف الضلالات عن أبصارهم حتى يبقوهم على ما هم فيه من الجهالات، ليسهل لهم التسلط عليه وحفظ مكانتهم فيهم، وولوع ذوي الجهل بذوي الفضل قديم في العالم، فكادوا له ما كادوا، وائتمروا به فأشاعوا عنه ما يستنكر لديهم من الأقوال، ويستقبح من الأفعال، حتى أثاروا عليه طبقات الجهلاء فأعلنوا كراهته وبغضه، وطلبوا محاكمته، فتقدم أحد المفسدين منهم إلى مجلس الشيوخ وادعى عليه أنه ينكر دينهم ولا يؤمن بآلهتهم وأنه يفسد عقول الشبان والفتيان ويبطل عقائدهم، بما يلقيه عليهم من الأقوال الباطلة والأفكار المضلة. فانخدع مجلس الشيوخ بهذه المفتريات وخاف أعضاؤه على أنفسهم من ثورة العامة فطاوعوهم وحكموا عليه بالموت بتناول السم. وهنا موقف الإعجاز في مقابلته للحكم بالرضا والقبول. وقد

عرض عليه بعض تلاميذه أن يجدوا له مخلصا، ويعدوا له أسباب الفرار، من هذا العقاب الجائر، والظلم الفادح، فزجرهم وقال لهم لست أرضى أن أكون مثالاً للناس في الخروج على حكم القانون، ومن ارتضى أن يعيش في بلد فليمتثل لما تقضي به شريعته واستمر في تدريسه كأحسن ما كان، حتى حان وقت التنفيذ، وكان يلقى على تلاميذه في ساعته الأخيرة مقالته في خلود النفس، وتناول السم بيده وهو ساكن الجوارح مطمئن النفس باسم الثغر.

وكان مثل سقراط، في فلسفته كمثل ضوء الشمس الساطع في هذا الوجود، فلما مات تحلل هذا الضوء إلى طيف، فأخذ كل تلميذ من تلاميذه بلون منه، فالكل منه مقتبس وإليه راجع، وإن اختلفوا اختلاف تلك الألوان بتفرقهم فإنهم يمتزجون امتزاجاً بتجمعهم، فذهب أفلاطون بفلسفته، إلى القول بخلود النفس، وسما بها إلى عالم المجردات، ورأى أن سعادة النفس قائمة على الاتصال بذلك العالم العلوي.

وقصر «انتستين» فلسفته على علم الأخلاق، وجعل سعادة الحياة، في احتقار الجاه والمال، ونبذ الشهوات، والعمل بالفضيلة، ولما كانت الغاية عنده من هذا الوجود، هي بلوغ سعادة النفس، فقد قرر أن الفضيلة وحدها هي

الطريق إلى تلك الغاية، وأن ما كان من أفعالنا خارجاً عنها فهو إما ضار وإما غير نافع.

وذهب «اريستيب» إلى أن اللذة، هي الغاية المقصودة من الحياة، وأن شعور الإنسان هو المعيار الذي تقاس به اللذات، فيترك الإنسان أدناها لأعلاها. ولو قيل إنه انحرف عن مذهب أستاذه سقراط بهذا التحديد، إلا أنه عاد فقيده بأنه لا بد للإنسان أن يجعل من نفسه، سلطاناً له على لذته، ولا وصول إلى ذلك إلا بإنماء القوى العقلية بالتربية.

ثم جاء «أرسطو» وهو تلميذ «أفلاطون»، فتوسع في مذهب أستاذه وجعل أساس فلسفته البحث عن العلل والمعلولات، وسمي كل بحث منها علماً، ليرجع بذلك كله إلى علة العلل، فجمع العلوم البشرية في دائرة فلسفته، فاستوعب بتآليفه التاريخ الفلسفي، والمنطق، والإلهيات، والطبيعيات، وتركيب الأجسام والنباتات، والأخلاق والسياسة، والآثار القديمة، والتاريخ الأدبي، واللغات، والنحو، والبيان، وفلسفة الفنون، وقد جعل لكل نوع من هذه الأنواع، روابط وقواعد علمية، ويقال إنه لم يضع وحده كل ذلك، بل أعانه عليه قوم آخرون في عهد الإسكندر تلميذه، لاتساع جاهه، وكثرة ماله، والسعادة عنده تنحصر في السعي والعمل على مقتضى الفضيلة، وارتقاء النفس إلى العلويات.

ثم جاء «ديوجين» وهو تلميذ «انتستين» المتقدم ذكره، وذهب إلى أن الفلسفة كلها في الزهد، والحرمان الاختياري، وفي ازدراء ما اصطلح عليه الناس من عادات وآداب واصطلاح، وقد دعا الناس تابعيه بالكلابيين، لأنهم كانوا يهرون وراء الناس بذكر معايبهم ونقائصهم، ومجابهتهم بالتقريع والتعيير، وقد جعل «ديوجين» نفسه لوحاً يقرأ الناس فيه فلسفته حاضرة، فكان يمشي بينهم عاري البدن، حاسر الرأس، مكتفياً بالخشن من القوت، يتوسد في نومه عتب الهياكل. وقد وصفه أفلاطون فقال عنه «إن سقراط يهذي ويهتر»، فإن سلطانه على نفسه ورياضتها على احتمال المشاق، وتمرينها على الحرمان الاختياري، وتخلصه من ربقة الشهوات، كان نصيبه الأوفر من ميراث سقراط، وقاعدة فلسفته من أجل القواعد، وهي أنه لا ملك للإنسان إلا ما تملكته نفسه، لا ما تملكته يده، لأن ما يملكه الإنسان في الحقيقة، هو ما كان في نفسه لا في يده، وما عدا ذلك فهو في يد الدهر. وكان يقول في كلامه أني لأسمع صوت الدهر يناديني، «ليس بين المخلوقات كلها، من هو خارج عن سلطاني إلا هذا الكلب العقور»، (يعني نفسه). ووقع مرة أسيراً في يد الأعداء، فعرضوه للبيع في السوق، فكان إذا سأله من يساومهم فيه «ماذا تحسن من عمل»؟ قال «آمر الناس وأنهاهم». ولمح في تلك السوق شريفاً من أشراف القوم في

زينته وخيلائه فقال «بيعوني من هذا فأني أراه يحتاج إلى سيد» وكان البائع ينادي عليه في السوق «من يشتري هذا العبد»، وهو يقول «من يشتري سيده»؟ ثم قال للذي اشتراه «اسمع لما آمرك به منذ اليوم وتقبله بالطاعة».

ثم جاء من بعدهم «أبيقور» فجعل لباب الفلسفة في علم الأخلاق، وأن الغرض الوحيد منها هو البحث عن الطريقة التي تجعل الإنسان سعيداً، في حياته، ولم ينظر إلى بقية أقسام الفلسفة، إلا من هذا الجانب ونبذ ما وضعه أرسطو من القواعد وما حدده من الحدود، وربطه من العلوم بالمنطق، ورأى أنه يمكن الإنسان أن يهتدي، بغير هذه القواعد، إلى معرفة الحقيقة كما هي، ووضع في ذلك قانونه المشهور، وملاك السعادة عنده اللذة، وهو يقول، إن من تمعن في أطوار الحيوانات والأطفال، علم أن الطبيعة لم تجعل لنا حداً نسعى وراءه سوى تلك اللذة، وهي اللذة الجسمانية المحسوسة، ويقول أيضاً. «إنه لا يعرف للسعادة وجوداً في غير تلك اللذة» ولكنه وضع فرقاً بين اللذة في الحركة واللذة في السكون، وتعريف هذه اللذة عنده «أنها ليست في الانتقال من حالة التعب إلى حالة الراحة، بل هي حالة البقاء على الراحة»، يعني بقاء الجسم في مركز التوازن، وبعبارة أخرى هي في الراحة التي يجدها الإنسان عقب قضاء رغبته، أو هي

فقدان الألم بأنواعه، أو هي حالة سكون النفس، لا حاجة بها إلى شيء، وهو لا ينكر وجود لذة للروح بجانب لذة الجسم، ولكن لا فصل عنده بينهما، فإن لذة الروح ليست إلا لذة الجسم التي صورناها لك مرسومة في الحافظة، أو مارة في الخيال، أو مرجوة في المستقبل، وأن مدة الزمن هي الفارق المعنوي بينهما. وعلى هذا تكون اللذة شيئاً ثابتاً موجوداً تحت تصرف الروح. ولكن ما هو طريق الوصول إلى هذه اللذة المزدوجة، وهذه السعادة الدنيوية؟ يقول «أبيقور» «إن الطبيعة بفضلها وعطفها علينا، قد وضعت في أيدينا كل الوسائل، ومهدت لنا كل الطرق للوصول إلى تلك السعادة، وجماع الأمر كله في هذا الطريق، أن نميز بين الرغبات التي تدور في صدورنا، فنعرف ما هو طبعي ضروري، مثل الأكل والشرب، وما هو طبعي غير ضروري، كالرغبة في أصناف الأطعمة وألوانها مثلاً، وما هو ليس بطبعي ولا بضروري، مثل فضول العيش وكمالياته. فإذا عالجنا النفس للتخلص من اسر الرغبات في القسمين الأخيرين، سهل علينا الوصول إلى منتهى طريق السعادة. لأن الجوع والعطش «هما الشيئان الطبيعيان دون غيرهما» ومن ذا الذي يعجز أن يجد كسرة من الخبز، أو جرعة من الماء، فالقناعة والزهد والتقشف وراحة البال هي الغاية التي تنتهي إليها فلسفة «أبيقور» المؤسسة في ظاهر الأمر على اللذة. ويشهد له أعداؤه أنفسهم بأنه عاش

هذه العيشة مطبقاً أفعاله على أقواله، ولكن جاء بعده من تلاميذه من خلط فيها، وانحرف بها إلى فلسفة «اريستيب» بما جعل الناس يسمونها «الفلسفة الشهوية».

هذا بعض الشيء من أصول الفلسفة ولبابها، في بساطة ووضوح، دون التعقيد والإبهام، والاستغلاق وشوائب الجدل، التي عمد إليها المشتغلون بعلوم الفلسفة فيما بعد حتى طرحوا الفلسفة جانباً، واقتصر بعضهم فيها على علم المنطق واعتبروه أساساً لها، مع أنه آلة من بعض آلاتها لميزان القول والفكر، وغايته تمحيص التعبير من الخطأ وهو أشبه شيء بآلة النحو في اللغة وقسموه، إلى خمسة أقسام. قسم يؤدي إلى الحق والصدق في سائر أحواله، ويسمى البرهان، وهو صناعة اليقين، وقسم يؤدي في أكثر أحواله إلى الصدق، وقد يكذب يسيراً ويسمى جدلاً، وهو صناعة الظنون. وقسم يؤدي إلى الحق مرة، وإلى الباطل أخرى ويسمى خطابة، وهو صناعة الإقناع، وقسم يؤدي في حالاته إلى الكذب، وقد يصدق قليلاً، ويسمى سوفسطائياً، وهو صناعة المغالطة، وقسم يؤدي إلى الباطل المحض ويسمى شعرياً وهو صناعة الخيال.

فهذا العلم الذي يشتغلون به من الفلسفة لا يفيد الغرض المقصود منها، وهو تثقيف الأخلاق، وتهذيب الطباع،

والسير على مقتضى الفضيلة ليصل الإنسان بذلك إلى سعادة الحياة وسعادة الممات.

وما نفع الإنسان من تلك القياسات والمغالطات في شفاء النفس من رذائلها، وتحليتها بفضائلها؟ ولعمري لو أنك جئت بألف عالم من علماء المنطق، وجئت أمامهم مثلاً بهذا الذي يعضه الفقر بنابه، وهذا الذي يقدم للقتل بين النطع والسيف، وهذا الذي يشكو ويئن وهو تحت أثقال الذهب التي ابتزها بطرق الخيانة والنذالة واكتنزها بحبائل الغش والخداع، وهذا الذي يهاب الخطوب، ويفزع من الكوارث، وهذا الذي أضناه الملل والسأم وهو في سعة من جاهه وماله، وهذا المريض، وهذا الجريح، وهذا الأسير، وتلك الثكلى، ثم أخذوا ينثرون عليهم ما في كتبهم من الجدل والسفسطة التي قضوا العمر في طلابها وينفثون ما في صدورهم من الأقيسة والقضايا أكان ذلك ينفعهم في شيء؟ أكان يشفيهم من أدوائهم، ويسكن من أوجاعهم، فينقلب البائس وقد انفرج بؤسه، والحزين وقد سرى عنه، والمحتاج وقد خف عنه عبء فقره، والمعذب وقد قويت عزيمته على احتمال عذابه، والخائف وقد ذهب عنه روعه، والغنى وقد علم أن الغنى غنى النفس لا غنى المال؟

وماذا يفيد الناس في هذا الموقف، أقوالهم المشهورة

وقضاياهم العقيمة في منطقهم، مثل قولهم «لو أردنا أن نقيم ألف دليل على أن هذه الهضبة من الذهب لما عز علينا»؟ وماذا يكسب الناس من هذه المغالطات التي يرددونها في كتبهم مثل قولهم: «لا يودع السر عند الرجل النائم، بل يودع عند الرجل الحازم، والحازم يقظ، فالحازم إذن لا ينام» أو كقولهم في هذه القضية أيضاً «كل ما لم يكن قد ضاع منك فهو معك. وأنت لم تضع لك قرون، فعندك إذن قرون»، ودعك من قولهم في الغناء، «لا تسمع، فتطرب، فتجود، فتفتقر، فتغتم، فتعتل، فتموت.

وما أغنى أولئك المصابين في أنفسهم عن هؤلاء الذين، يشتغلون بهذا اللغو الباطل من الفلسفة، وما أحوجهم إلى فيلسوف واحد يعلم حقيقة الفلسفة وبساطتها، فيهديهم إلى ما يهذب نفوسهم بالفضائل، وينقيها من الرذائل، ويفيض عليهم من أشعة الحكمة، والموعظة الحسنة، ما يقشع عنهم ظلمات ما هم فيه من الأحزان والأكدار، ويكشف لهم عن حقائق الأشياء في هذه الحياة، ويبين لهم ما هو الضروري من العيش، وما هي الفضول والزوائد، التي أورثت الإنسان أنواع البلاء، وأفانين الشقاء، وذلك هو لباب الفلسفة، وذلك هو علم الأخلاق، وأنه لقريب التناول، سهل المأخذ، لا يستعصى على الفهوم، ولا تكد له القرائح، بل هو في سهولة

قصة من القصص، أو حكاية من الحكايات؛ لا يتعذر على أي إنسان فهمه، لأنه يتناول أدوار حياته من أول عمره إلى منتهاه، ويرشده إلى الفضيلة التي لا يمكن بغيرها، أن يعيش الإنسان سعيداً ويموت سعيداً. وهذه الفضيلة تقوم على أربع دعائم: الأولى، العقل، وهو التمييز والروية وصحة الحكم. والثانية العفة، وهي الورع وضبط النفس عن الشهوات المؤذية الفانية. والثالثة الشجاعة، وهي الإقدام والثبات عند نزول المكروه. والرابعة العدالة، أي الاستقامة وهي صحة الأفعال ووضعها في مواضعها اللائقة بها.

والفضيلة تنحصر بالإجمال فيما يجب على الإنسان للإنسان، وفي قيمة الأشياء في حد نفسها، وفي تأثير الأشياء في النفس، وإحساس النفس إياها. وفيما يصدر عنها من الأعمال، وفي أن تعلم المعنى المسمى خيراً، وهو الأمر المرغوب فيه لذاته، والمعنى المسمى شراً، وهو المرغوب عنه لذاته، والمعنى المسمى نافعاً، وهو السبب المؤدي إلى الخير، والمعنى المسمى ضارا، وهو السبب المؤدي إلى الشر، وكل إنسان في الوجود، قادر على مزاولة الفضيلة، والسير في طريقها، وقد وضع الله سبحانه وتعالى، بذورها في فطرة الإنسان، وغرس جذورها في الصدور، لتنمو فيها بالممارسة، ولكن من سوء حظ الإنسان أن انحرف عن

الطبيعة، وتسلل من الغريزة ، واستسلم للأهواء الباطلة، والأوهام الفاسدة، فغطت على بذور تلك الفضيلة، ونمت مكانها بذور الرذيلة.

وجملة القول في هذا المجال المتسع، أن علم الأخلاق هو المقصود بالذات من الفلسفة، وأن أصوله قديمة في العالم اهتدى إليها منذ الزمن الأول فلاسفة الهند، وفلاسفة الصين، وفلاسفة اليونان، وفلاسفة الرومان، وإذا كنا خصصنا بالذكر في كلامنا عن الفلسفة، فلاسفة اليونان، فلأنهم المصدر الذي ارتوى منه فلاسفة الرومان، ومن بعدهم فلاسفة أوروبا في العصور المتأخرة إلى يومنا هذا، فكلهم عيال عليهم، ولم يبرّز العلماء الأوروبيون، وإن كانوا برزوا في كل شيء، على علماء الأخلاق في الأزمان السابقة، ولكل ما هنالك، أنهم فرعوا على تلك الأصول، وشرحوا وفسروا، وأطنبوا وأسهبوا، ولكنهم لم يأتوا بأكثر من الطراز على الثوب، والأهداب على الستر، ولكل إجماع على أن محاسن الأخلاق لا تأتي إلا من طريق الفضيلة، التي بينا لك أركانها، وأن سعادة الحياة لا تنال إلا برياضة النفس عليها، حتى تصير فيها ملكه، وأن كل إنسان قادر على مباشرتها، والسير في طريقها، وأن بذورها كامنة في الصدور بفطرة الخالق التي فطر الناس عليها، لتنمو فيها بالممارسة، ولكن من سوء حظ

الإنسان، أنه تزحزح عنها، واشتغل بالباطل في اجتماعه، وغفل عن حقيقة سعادته، وضل طريقها، وظل يبحث عنها من غير وجوهها، وينشدها ولا يدركها، إذ خرجت النفوس عن أطوارها، وتسللت من غرائزها، فأصيبت بالأمراض المختلفة من الأهواء والأطماع والآمال والأماني، فكان لا بد للإنسان في معالجة نفسه، أن يرتد إلى حكم الطبيعة، وأن يبحث ويفكر، ويحكم عقله، ويشحذ إرادته، ويغلب القوة الحاكمة، على القوة الواهمة، ويكشف بنور الحقيقة، ظلمات الجهل والوهم، ويروّض نفسه على أحكام الفضيلة، فلا يشحن نفسه بالرغبات، ولا يضعفها بالرهبات، ولا يسلمها للهموم والغموم، ولا يتركها للجزع والفزع ولا يعرضها للوسواس والهواجس، وأن يعودها ألا تعتبر كل هذه المطالب الطويلة العريضة التي تشغل أطماع الناس، في هذا العمر القصير، إلا أموراً تافهة لا يعني بها، ولا يؤبه لها، ولا يؤثر فيه حرمانه إياها، وما أحقر أمور الدنيا وأصغرها في جانب الأبدية، كما أنه يوطن نفسه ويؤهلها لمصارعة الخطوب، ومنازلة النوازل، فلا يصيبه شيء منها، إلا وقد أعدّ له عدته، وقدر وقوعه، حتى لا تفاجئه الأيام بأمر جديد لم يكن في حسبانه، ولا تباغته بحادث إلا وقد اتخذ لنفسه موئلاً من الحكمة يأوي إليه، ويتدرع بحصنه، وأن يكون هو على حال واحد، وموقف واحد، أمام صروف الدهر وبلائه، وأيام هنائه

وصفائه، وأن يكون هادئ النفس، ساكن البال، على كل حال، وأن يكون هو المعني بقول الشاعر لممدوحه:

وحالات الزمان عليك شتى

وحالك واحد في كل حال

فالذي يتعيّن علينا إذن أن نرفع عن النفس أوهامها وأباطيلها، وأن نبين لها حقيقة الأشياء، وأن نرفع عنها غشاء الأهواء وندفع عنها عدوان الرغبات والشهوات، ونكشف عن عوامل الرذيلة التي عارضت نمو الفضيلة فنشرح أسواءها وأدواءها، ونصور بشاعتها وفظاعتها، ونبسط أضرارها وشرورها، حتى تعافها النفس وتستنكفها وتبتعد عنها، وتنفر منها، فتطهر من الأدناس والأرجاس وتبدو بذور الفضيلة، ويربو غرسها، وهذه الطريقة في رأينا أدخل على النفس، وأفعل بها من طريقة مدح الفضيلة وتزيينها وتبيين محاسنها كما جرى عليه السلف، فلو أنك كررت على الإنسان في كل يوم أن الخير أحسن من الشر، والحلم أفضل من الغضب، والصدق خير من الكذب، لأقرك على ذلك كله، ولكن طول التكرار لهذه الألفاظ، لا يترك في نفسه إلا صورها مجردة دون معانيها، مثل ألفاظ الوعظ في خطب المنابر يسمعها ولا يدرك العمل بها. ولقد كان لي صاحب لا يكذب فسألته يوماً كيف راض نفسه على ذلك، وقلّ من لا يكذب في عصرنا،

فقال مارضتها وما عالجتها ولكنني عاشرت في صباي كذابين يبتكران في الكذب ويخترعان، فكنت أشاهد من تكذيب الناس لهما، وسوء سمعتهما، وما يحل بهما من الخجل والخزي وما يفعل بهما النسيان، فيفضح الكذب، وما يصيبهما من الضرر وإن قالا صدقا، ويأبى عليهما الناس إلا أن يكون كذبا، وهان أمرهما على أصحابهما فكانوا ينفضون من حولهما، فشاهدت من سوء أثر الكذب وقبح أمره، ما كرهني فيه طول الحياة.

وقد آن أن نبدأ ببعض الفصول في هذا الباب ونسأل الله الهداية في المبدأ والمآب.

الغضب

اعلم ـ وفقنا الله وإياك إلى الرشد ـ أن ما نسميه بصروف الدهر، وإحن الزمن، ومحن الحياة، ومصائب الدنيا، وأكدار العيش، وسوء الحظ، يتولد كله من رذيلة الغضب. وكما يقول الفرنسيون عند كل حادثة «فتش عن المرأة» فكذلك إذا رأيت بلية من البلايا أو نازلة من النوازل فابحث فيها تجد أصلها من بذور الغضب.

فالغضب أبشع أمراض النفس كما أن الجذام أبشع أمراض الجسم. والغضبان يشترك مع المجذوم في تشويه الوجه، وطمس معالم حسنه، ويزيد عليه كونه مصدر النوائب، ومنبع الرزايا. وفي الحديث الشريف «فر من المجذوم فرارك من الأسد»، والغضبان أسرع من الأسد بادرة في أنواع الشرور وأسباب المهالك.

وقد عرف أحد العقلاء الغضب فقال: «الغضب جنون متقطع»، وإنك لو نظرت إلى الغضبان وهو في اختلاط عقله، واختباط جسمه، وتقلص شفتيه، وبحة صوته، وازدحام

أنفاسه، واحتدام وجهه، وانتفاخ أوداجه، وارتعاش يده، واضطراب أعصابه، وخفقان قلبه، وغليان دمه، وقذف فمه بالزبد وعينه بالشرر ـ لحكمت حكماً قاطعاً، بأن المجنون أسلم عقبى، وأقرب منه إلى الحسنى. ولو أبصر الغضبان وجهه في المرآة، وهو على هذه الصورة المنكرة التي تقذى العيون بالنظر إليها، لاستحيا من نفسه، ولخجل ممن يراه. وقد دخل رجل على أفلاطون الفيلسوف، فرآه منحنياً وبيده سوط، وأمامه خادم، كان شرع في تأديبه، فلما أدرك الحالة التي يكون عليها الغضبان في غضبه أمسك عن ضرب الغلام وكظم غيظه، وبقي منحنياً ذلك الانحناء، فسأله الرجل عن هذه الوقفة، فقال له الحكيم أردت أن أضرب هذا الخادم فلما رأيت نفسي على هذه الهيئة، قصدت تأديبها بالبقاء عليها حتى تثوب عن غيها. وقال النبي عليه السلام «ليس الشديد بالصّرعة وإنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب».

ولو جعلت لأحد المترفين المتأنقين الذين يقيسون خطاهم بمقياس، ويتبسمون بمقدار، ويتلفتون بميزان، ضيعة من الضياع، على أن يقطب وجهه، ويقلص شفتيه وينكر صوته، ويتابع زفراته، ويغص بريقه، لاستنكف لنفسه أن يفعله. ولكن أغضبه في دانق تضحك من هذه الصورة أياماً.

وكم فتح الغضب أبواباً للسجن، ونصب أعواداً للصلب،

وفتل حبالاً للخنق، وبسط النطع، وسلّ السيف، وأضرم ناراً للحرب وقد يستر العقل آفات النفس ورذائلها، إلا الغضب، فإنه يستر العقل، ولا يتغلب على ظهوره شيء بل تراه يشق الجسم، ويبرز منه شاكي السلاح، فيقطع أواصر القربى، ويفصم عرا الأبوة والبنوة، بل عرا الإمامة والنبوة.

وللغضب درجات يصعد إليها واحدة إثر أخرى، حتى يصعق صاحبه، ويذهب برشده ولبه، ويطير بصوابه، ويجعل جسمه جمرة تضطرم وجذوة تشتعل.

والغضب كالحريق أوله شرارة، ثم يكون منه ما يهول سماعه، ويغول منظره. ولهذا يمكن العاقل بادىء الأمر، أن يطفىء تلك الشرارة، ولكن يتعذر عليه أن يطفىء نار الغضب إذا هي شبت واستعرت.

وأخف الغضب ما انتشر على اللسان، بالسب والشتم، والصياح، وأشده ما يبقى محصوراً في الصدر يزحم بعضه بعضاً، فلا يلبث أن ينفجر بالتهور والجنون، انفجار المرجل انحصر فيه البخار.

وقد عرف «أرسطو» الغضب فقال «هو إرادة. مقابلة الشر بالشر» ولكنا نرى كثيراً من الناس، ينشأ غضبهم عن تصور نية الشر من الغير، لا عن وقوعه بالفعل، وقد يفرطون فيغضبون على غيرهم لتوهم وقوع الشر منهم، ومن المبالغات

التي تذكر في هذا الباب. أن أحد أمراء اليونان القدماء بلغه من بعض حاشيته أن أحدهم رأى في المنام، إنه يكيد له مكيدة، ويدبر خروجاً عليه، فغضب وأمر بقتله في الحال، وقال لو لم يجل في خاطره هذا العمل، لما رأى في المنام رؤياه.

وهنا يجب أن ننظر إلى الغضب، هل هو من لوازم الطبيعة البشرية، وهل يستعان به في بعض الأمور ـ فلبيان الغرض الأول نقول: إن الإنسان من بين سائر الحيوانات، أطبعها على اللطف، وأميلها إلى الرفق، ما دام باقياً على فطرته وغريزته، ومن كانت هذه حقيقته فلا قسوة فيه، والغضب قسوة. ولا نرى محبة أكمل من محبة الإنسان للإنسان، والعداوة كل العداوة في الغضب، والإنسان حريص على السعي في بقاء نوعه، وفناؤه في الغضب، والإنسان ميال بطبعه إلى التجمع، والغضب يشقه عن الجماعة، والإنسان يرغب في نفع غيره حتى يكاد يرمي بنفسه في الأخطار لخلاص من يعرفه، ومن لا يعرفه، والغضبان يرضى أن يقع في النيران إذا جر معه غيره. وانظر إلى الغضب في تأكيد عبد الله بن الزبير لما اعتنق مالكاً في الميدان ونادى قومه:

اقــتــلــونــي ومــالــكــا

واقــتــلــوا مــالــكــاً مــعــي

فلا يكون الغضب حينئذ من لوازم الطبيعة البشرية.

ولبيان الغرض الثاني نقول: الاستعانة بالغضب في بعض الأمور، مما لا تقتضيه الحكمة أن الغضب شر، ولا نفع يخرج من الشر، ولا نسلم أن ما يعامل به الحاكم الجناة والمجرمين، في إيقاع العقوبات بهم، من قبيل الاستعانة بالغضب، لأنها ليست للإيذاء، بل هي تقويم وتثقيف، ومن شرائط القضاء، ألا يجلس القاضي للحكم وهو غضبان، وقد يغلظ الطبيب على المريض بالحمية رجاء شفائه، فإن لم تخفف من مرضه، منعه الأكل والشرب البتة، لبقاء على حياته، فإن لم ينفعه، ركن إلى الكي بالنار، والبتر بالسلاح، ليحفظ الأعضاء الصحيحة من عدوى ما يحاورها من الأعضاء السقيمة، فهو يكوى ويبتر، وليس في صدره ذرة من الغضب، ولا فرق بين الطبيب والحاكم في معاملة مرضاهما. إلا أن الطبيب ينفع مريضه، بتخفيف الآلام عنه حتى الموت، والحاكم ينفع الجماعة بتشديد الآلام على مريضه (أعنى المجرم) حتى الموت، فهو يعزر، ويسجن، ويضرب، وينفى، ويقتل، وليس في قلبه خردلة من الغضب وإنما هو رفق منه بالجماعة، يجعل الذين يضرون الجماعة بحياتهم، ينفعونها بمماتهم، وهذا معنى قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (البقرة: ١٧٩).

قال «أفلاطون»: «العادل لا يضر أحداً، والانتقام ضرر، فالعادل لا ينتقم» وإذا كان العادل يستقبح الانتقام، فكيف يستحسن الغضب الذي هو علته؟ ومن هذا يخلص أن الغضب ليس مطابقاً للطبيعة البشرية.

وقد قال بعض الحكماء «إن للغضب مواضع يجب استعمال جزء منه فيها لأنه ينبه من النفوس حميتها، ويدفع بالمرء إلى اقتحام الأخطار في ميادين الحروب. وإذا لم يكن ثمة غضب، فلا يكون لشجاعة الأبطال في المعارك من شأن يذكر، وإن في قدرة العاقل أن يقف منه عند الحد الذي يستعمله فيما يجب استعمال فيه» وهذا قول باطل، لأن الغضب شر، والفرار من الشر أيسر من القدرة عليه بعد الوقوع فيه، والوقوع في جزء منه عبارة عن الوقوع في الكل، لأن من لم يقدر على حماية نفسه من الوقوع فيه، وهو خلو منه، لا يقدر على وقفه عند حد محدود، فإنه إذا خالط النفس أصبح آمراً لا مأموراً، وحاكماً لا محكوماً، والعقل الذي ألقت إليه النفس مقاليدها، وأسلمته زمامها، ليهديها سواء السبيل، لا يقوم بوظيفته إلا إذا تغلب على الأهواء النفسية، أما إذا اختلطت به، فلا يقدر على قيادة النفس في طريق الحكمة، لوجود مشارك مناقض له في قيادتها.

ومن الأمور ما يكون تحت حكمنا ثم نصبح تحت

حكمه، مثل كلمة السوء، إذا لم تتكلم بها ملكتها، وإذا تكلمت بها ملكتك، وكالمرء يكون مالكاً نفسه على شفا هاوية، فإذا سقط فيها استحال عليه أن يقف أثناء سقوطه، وكالقوم يزحف العدو على حدود بلادهم، ويكون في طاقتهم صده عنها، فيتهاونون بأمره، حتى يقتحم الأسوار فلا يملكون له دفعاً، وهذا مثال الغضب، فإنك إذا دفعته قبل أن يخالطك نجوت منه، وإذا لم تدفعه ملكك.

وقال «أرسطو» أي انتصار ينال في الحرب بلا غضب، وهو المحرك للحمية، المولد للشجاعة؟ ولكن يجب أن يستعمل كاستعمال الجندي الذي يقاد لدى الرئيس الذي يقوده» فرد عليه بعض الفلاسفة بأن دعواه باطلة، لأنه إذا كان الغضب يمتثل للعقل، ويقاد به، فليس هو بغضب، لأن الغضب يعصى العقل ولا يتبعه، والغضب من شأنه المقاومة، فإذا اندفع بشدته، فلا يمكن صده مطلقاً، ويكون بالنسبة للعقل كالجندي العاصي الذي لا يطيع إشارة قائده بالتقهقر، فأما أن يكون الغضب قابلاً لما يأمره به العقل من الاعتدال والوقوف عن الحد المطلوب، وحينئذ لا يسمى غضباً، بل يجب أن يسمى اسماً آخر، لأنه بهذه الحالة يخرج عن تعريف الغضب، وهو من الأهواء النفسية التي لا يمكن للعقل كبح جماحها. وإما أن يكون خارجاً عن سلطان العقل غير

قابل لسلطته عليه، فيكون شراً عظيماً، لا مساعداً معيناً، يرتجى منه أي نفع. ولا وجه للتمثيل بالجندي، لأن الجندي النافع يعرف كيف يطيع قائده، باعتباره أعلى نظراً، وأوسع منه علماً، والهوى النفسي لا يعرف كيف يطيع، كما أنه لا يعرف كيف يحكم، والعقل لا يقبل مساعداً له، خارجاً عن سلطته يكون من شأنه التهور والاندفاع بغير روية، ولا يقدر على رده، وخضد شوكته إلا بمعارضته بهوى نفسي آخر، كأن يعارض الغضب بالخوف، والفتور بالغضب، والخوف بالطمع، والعقل أشرف من أن يشفى داء بداء، وليس من شأن الفضائل أن تستعين بالرذائل، وتستند عليها، فإن ذهبت إلى أن الغضب ينفع إذا كان ملطفا محددا، فكأنك اعترفت بأن في ماهيته نفعا، ولكن كيف يكون ملطفا وهو خارج عن سلطة العقل؟ ولو فرضنا إمكان تلطيفه، فما هو النفع المرتجى منه، سوى أن يقال شر أخف من شر؟ وكل هوى نفسي يمكن تلطيفه لا يقال عنه إلا أنه شر ملطف، وإن قلت إن للغضب ضرورة في ساحة القتال، قلت لك إن جاز أن تستند إليه الضرورة، فضرورته أبعد ما تكون عن القتال، لأنه لا يلزم للقتال حدة عمياء، بل الذي يلزم له شجاعة مهذبة بالنظام والتثقيف. أليس الغضب هو الذي يجعل المحاربين المتوحشين، أولى القوة في الجسم، والصبر على النزال، أحط درجات في ميدان الحرب، أمام الجيوش المنظمة،

المدربة، وأكثر إلقاء بأيديهم إلى التهلكة، وثقافة المصارع تقيه، وغضبه يرديه، فما ضرورة الغضب إذن لأمر ينال بالعقل والتدبير؟ أترى أن القانص الذي يرصد قنيصته ليصيبها، أو يعدو وراءها ليصيدها، يكون به شيء من الغضب عليها يساعده على اقتناصها؟ كلا. كذلك المقاتل لا يحتاج إلى شيء من الغضب يساعده على القتال، فالعقل وحده هو الذي يهديه، والغضب بعيد عن الهدى، وقد تبين مما تقدم أن لا منفعة من الغضب في الحرب، ولا منفعة منه في السلم يستعان بها في تأدية الواجب.

فإن قيل لنا «ألا يغضب العاقل إذا رأى أباه قتيلاً، أو ابنه جريحاً، أو امرأته سبية»؟ قلنا إن الدفاع عن الأهل والاقتصاص لهم واجب، والواجب لا يقبل شيئاً يزيد في وجوبه، وإذا بلغ الواجب حده، فلا مزيد عليه؟

وكل الذين قالوا بمنفعة الغضب، اعتقدوا أن الغضب يشحذ الحمية، لأداء مثل هذا الواجب، والعاقل يعرف الواجب عليه، وكيف يقوم بأدائه، وإلا فإنه إذا احتاج في القيام به إلى محرك مثير، أو محرض، كانت معرفته به ناقصة وهذا مناف لصفة العاقل.

والأحكم، والأقوم، والأجدر، بمن يقوم بأداء الواجب في الدفاع عن أقاربه، وأولاده، وأصحابه، وأهل وطنه، أو

الاقتصاص لهم، أن يباشر ذلك، بالتبصر، والتروي، وصحة الحكم، لا بالتهور والتهيّج والثوران، وما شابه ذلك من لوازم الغضب. وكم أضل الغضب صاحبه عن نيل غرضه، وتأدية واجبه، وعمي عليه وجه الصواب. فهو كبقية الأهواء النفسية التي كثيراً ما تكون بنفسها مانعة لقضاء بغيتها. ومع ذلك كله فإذا فرضنا أن الشر نتج منه خير مرة، وأن الغضب كان منه نفع مرة، فليس فيه برهان على اعتبار ذلك، والاعتماد عليه، فإن من الأمراض ما تذهب به الحمى، فهل يكون ذلك داعياً إلى الرغبة فيها؟ وأهون بصحة تأتيك من طريق المرض.

وكل خير إذا عظم، عظم نفعه، وكل شر إذا عظم عظم ضرره، فإذا كان في الغضب خير زاد نفعه بزيادته، والحقيقة على خلاف ذلك. فما نفعك قليله، فكثيره أنفع، وما أضرك قليله فكثيره أضر، ويليق في هذا المقام قولهم «ما أسكر قليله فكثيره حرام».

ولو كان في الغضب خير، لكان من نصيب العقلاء من الرجال، ولكنا نرى أن أكثر من يشتد بهم الغضب هم الأطفال، والنساء، والشيوخ، والمرضى، لضعف نفوسهم، وكل ضعيف النفس موصوف بالشراسة والملاحاة والمنافرة والمعاندة.

وقال أحد الفلاسفة: «لا يستطيع الرجل الفاضل أن يمتنع

من الغضب على الرجل الشرير» وعلى هذا القول يتعيّن، أنه كلما ازداد الإنسان فضلاً. ازداد غضباً، وأي داعٍ يدعو ذا الفضيلة إلى الغضب على فاعل الشر، إذا علم أنّ الدافع له إلى ارتكاب الشر هو الخطأ، ومن البعيد أن يرتكب الإنسان الشر لمجرد الشر حتى ولو كان بقصد سيء إذ لا بد من غاية يقصد بها فاعلُ الشر جلب منفعة لنفسه، والساخط على مرتكب الخطأ، أولى به أن يسخط على نفسه أولاً، لأنه غير معصوم منه، ولو انتصف الإنسان من نفسه وحاسبها، لوجد له أفعالاً تستحق اللوم والتعزير، والعادل من يحكم على نفسه، كما يحكم على غيره. والأليق بالمحبة الإنسانية أن يظهر المرء عطفاً على المذنب فيرشده الإرشاد الأبوي إلى سواء السبيل، لا أن يتعقبه بالسوء والأذى. والواجب أن نمحض ذا الشر النصيحة ليكون النفع عائداً منه على نفسه وعلى غيره، لا أن نقابل شراً بشر مثله، فلا نفع في مقابلة الشر بالشر. وأي طبيب يغضب على مريضه؟ وأحوج الناس إلى البعد عن الغضب، من كان بيده أمر العقوبة، لأن العقوبة لا تقع موقعها، إلا إذا كانت صادرة عن العقل، لا عن الغضب، ومصداق هذا ما قاله «سقراط» لخادمه وقد أذنب ذنباً «لو لم أكن غضبان لضربتك فانظر إلى هذا الحكيم كيف انتظر حتى يذهب عنه غضبه، ويثوب إليه حلمه، حتى يصح له أن يوقع العقوبة!

وينبغي عند تقرير العقوبة على الذنب أو الخطأ ألا يكون القاضي بها غضبان منفعلاً، لأن الغضب مثل هذيان الحمى في النفس. ولا يجوز لمن كانت هذه حالته أن يصلح غيره قبل أن يصلح نفسه. وكيف يغضب القاضي وهو طبيب الهيئة الاجتماعية، وعنده من أنواع الدواء في العقوبات ما يعالج به كل نفس على قدر ما يصلحها، فمن لم يصلحه العتاب أصلحه التأنيب، ومن لم يصلحه التعزير أصلحه الحبس، وهلم جرا، حتى إذا رآه عضواً فاسداً لا ينجع فيه العلاج بتره من جسم المجتمع بالإعدام، فما معنى استعمال الغضب هنا، ووظيفة القاضي هي الشفقة على المجتمع، من جهة إصلاحه ببتر هذا العضو منه، والشفقة على العضو نفسه لإراحته مما هو فيه، وهل غضب إنسان على العضو المصاب بالأكلة حين البتر؟

ولنبحث الآن عن الغضب هل هو يحدث في النفس اضطرارا اختيارا. وعندنا أنه لا يحدث إلاّ بإرادة النفس لأن المرء لا يستفزه الغضب إذا شتمه آخر إلا بعد أن يتصور ماهية الشتم، وما يترتب عليه من الإهانة، وما يقتضيه من الانتقام ممن شتمه، فينتفي بهذا كونه من الحركات الطبعية القسرية، التي هي فوق إرادة الإنسان، لأن الحركات الطبعية مما لا يمكن العقل دفعه ولا التخلص منه، مثال ذلك حمرة

الخجل، وصفرة الوجل، والانتفاض من الماء البارد، والاضطراب لسماع ما يحزن، والفزع عند الخوف، والدوار عند النظر إلى هاوية، فكل هذه حركات قسرية، فلو كان الغضب من نوعها، لما أمكن العقل أن يلطف منه أو يتغلب عليه، إذ الغضب، كما قدمنا، لا يصدر إلا عن باعث من الفكر حصلت به الإرادة، ولا مانع حينئذ من استعمال العقل لصرفه أو تلطيفه.

والإنسان الكامل لا يستفزه الغضب، ولا ينفعل بأثر الحوادث في نفسه، ولا في غيره، فإذا قلت «إن الكمال يقتضي الفضيلة، وصاحب الفضيلة يرضى بما يطابقها، ويغضب لما يناقضها، فصاحب الفضيلة يغضب للرذيلة» قلنا إن ذلك مدفوع بأن من أخص لوازم الفضيلة سعادة النفس، ودوام ارتياحها، فهي بعيدة عن الغضب، بعدها عن الحزن، وإذا كان نصيب العاقل أن يغضب لكل شر يراه، فكلما ازداد الشر ازداد غضبه، فينتج من ذلك أن تكون حياة العاقل غضباً وحزناً كلها، فيصبح من أتعس الناس حظاً في هذه الدنيا، وذلك مناف لأخص لوازم الفضيلة.

وهل يخلو العاقل، إذا خرج من بيته أن يصادف في طريقه كثيراً من أنواع الرذائل التي يتصف بها البخيل، والسفيه، والأحمق والكذوب، والمنافق، والسارق، وكل

راضٍ برذيلة متبجح بها؟ وهل يفتح عينه أو يغمضها على غير الاستقباح والاستنكار؟ فهو على ذلك لا يخلو من الغضب طرفة عين. وكيف يكون حاله لو توجه في صباحه إلى دار القضاء فوجد المئات من المتقاضين، هذا يشكو أباه، وهذا يتهم أخاه، وهذا ينازع أمه، وذاك يشهد الزور، وسواه يدعي الباطل، والمحامي ينتصر بمهارته لدعواه، والقاضي يحكم بالعقوبات على ذنوب ربما كان هو أيضاً منغمساً في مثلها؟

وكيف تكون حاله إذا شاهد في المعاملات أن لا ربح لأحد إلا بخسارة آخر، ورأى المجدود بين الناس محسوداً مكروهاً، والمنكود محتقراً مرذولاً، والقوي يدوس الضعيف، والضعيف يدوس الأضعف، وكلّ ميال إلى ضرر أخيه، يعتبر الهفوة منه ذنباً عظيماً والزلة جرماً كبيراً، والخطأ عدواناً فظيعاً، والجميع في ميدان حياتهم، كالمتصارعين في ميدان صراعهم، بل لا فرق بينهم وبين الوحوش الضارية، بل هم أحق منها بصفة التوحش، فإن كل نوع منها يعيش فيما بينه بسلام وأمان، ولا سلام ولا أمان بين نوع الإنسان، ولقد رأينا الأسد الكاشر يتودد إلى من يطعمه بكل علامات التودد والتحبب بينما نرى الإنسان أول فاتك بمن أحسن إليه وكيف تكون حال العاقل أيضاً وهو يرى الرذائل والجرائم قد ملأت الخافقين، حتى أصبحت الشرائع والقوانين لا تقوى على وقفها عند حد، ولا تطيق صد سيلها الجارف ولا تيارها

الجاري، وليست هذه الرذائل مقصورة على قوم دون قوم، ولا فئة دون أخرى، بل كأن الجمعية البشرية صاح فيها صائح الشر فلبته من كل مكان، فصار الضيف لا يأمن مضيفه، ولا الصهر صهره، وأصبح الأخ لا يود أخاه، والابن يستطيل عمر أبيه، ويعده بالأيام للميراث، والزوج يفكر في التخلص من زوجته، والزوجة تدبر المكايد لزوجها، والجار يخون جاره، والشريك يغش شريكه ثم أضف إلى ذلك مطامع الشعوب بعضها في بعض، وما يقع بينهم من الحروب، ونقض العهود، وخلف الوعود، والنهب والسلب، فهل تريد أن يغضب العاقل ويسترسل في غضبه على قدر ما شرحناه لك من الرذائل والكبائر والجرائم والمعايب. لا جرم أنه يكون حينئذ على حالة لا يفي التعبير عنها بكلمة مجنون. أليس الأولى بنا أن ننسب ما الناس فيه إلى الخطأ والغلط؟ ولا يجدر بالعاقل أن يغضب منه. كما أنه لا يغضب على مماشيه إذا عثر في الظلام، أو إذا نادى خادمه ولم يجبه لعارض أصابه في سمعه، كما لا يغضب على من نهكه المرض، والتعب أو الشيخوخة، فإذا كان لا يجدر به أن يغضب من هذه الأمراض الجسمانية كذلك لا يجدر به أن يغضب من هذه الأمراض النفسية التي تعمي عن الصواب، وتوقع في الخطأ، ولينظر في هذه الحالة إلى الجمعية البشرية نظرة شفقة ورحمة لا نظرة قسوة ونقمة.

فإن قيل: «ليس في طاقة الإنسان أن يدفع الغضب بتاتاً ويطهر نفسه منه تطهيراً، وإن طبيعته البشرية لا تقوى عليه»: قلنا إنه لا يوجد في الدنيا شيء من المصاعب والمشاق إلا وفي قدرة الإنسان أن يتغلب عليه بطول الرياضة، والممارسة، ودوام التثقيف والتهذيب، فيلين له كل صلب، ويسهل لديه كل صعب، وليس من هوى من الأهواء النفسية، وإن اشتد وتعاصى إلا وفي الطاقة إخضاعه على طول الزمن، بالدأب على المعالجة، والتدريب. وقوة الإرادة، وثبات العزيمة. لا يتعاصى عليهما أمر، ولا يعجزهما بلوغ غاية، وقد وصل الناس بهما إلى ما لا يكاد يصدقه العقل. فمن الناس من حكم على نفسه أن لا يضحك طول حياته، فبقي عابساً ما عاش، ومنهم من امتنع عن الطعام الأيام والأسابيع، ومنهم من حاول الوقوف على رجل واحدة فوقف عليها ليالي وأياماً، ومنهم من يمد ذراعه في الهواء فلا يثنيها زمناً طويلاً، ومنهم من نراه يمشي على الحبل الممدود في الهواء كما يمشي على بسيط الأرض، ومنهم من يحمل الأثقال التي تنوء بالعصبة أولى القوة، ومنهم من يطوي البسيطة مشياً على الأقدام، ومنهم من يغوص إلى قاع البحر فيبقى ممتنعاً عن التنفس تحت اللّجة زمناً يبحث عن الأصداف، إلى غير ذلك من الأعمال التي يطول الاستشهاد بها في قوة الإرادة، وثبات العزيمة، مع طول الممارسة، ودوام الرياضة، مع أن الفائدة

العائدة منها قليلة ضئيلة لا تذكر في جانب ما تحمله صاحبها من المشقة في مزاولتها، فكيف لا يمكن الإنسان بعد ذلك، أن يستعمل قوته هذه في التغلب على الغضب فيدفعه ويذلله؟ لا ريب أن من وراء التغلب عليه ما لا يحصى من الفوائد العظيمة، التي منها راحة الفؤاد، وسكون البال، وصفاء الخاطر وسعادة النفس.

وليس في الأمراض النفسية، ما يستعصي علاجه على طول الزمن، فإن القدرة الإلهية أودعت النفس البشرية، استعداداً كامناً لقبول الفضائل، وبقوة هذا الاستعداد، يمكن الإنسان أن يصلح ما أعوج من أخلاقه، والتوى من طباعه، إذا عقد العزيمة، وراضٍ نفسه على مغالبة الرذيلة، مع الدأب والمواظبة، حتى تصبح له عادة. وملكة، لا يحس معها تعباً أو نصباً، ويهون عليه بذلك كل صعب.

ولا يظننّ ظان أن طريق الفضيلة وعر المسالك، بل هو في الحقيقة سهل على من يسهله لنفسه، وليس على الإنسان إلا أن يسير فيه دائباً، مواظباً، فيوشك أن يصل إلى غايته، وكيف يترك الإنسان نفسه للتعوّد والتمرن على الرذائل، وهي كلها أذى واضطراب، ويهجر المرانة على الفضائل، وكلها ارتياح وصفاء، فيبيع راحة الحلم بكدر الغضب، ولطف الرحمة بعنف القسوة، ويبيت ليله. يتململ على شوك

الرذائل، والعاقبة وخيمة، والمنقلب سيء، وفي قدرته أن يبيت ناعم البال، هادئ النفس، لا يخشى ما يجليه الغضب من كدر العيش، ونكد الحياة، فكم أودت كلمة الغضب بقائلها، وفتكت بصاحبها!

إلى هنا ينتهي بنا القول في شرح داء الغضب، ولنأخذ الآن في ذكر علاجه ودوائه فنقول: ينقسم علاج الغضب إلى قسمين: علاج يمنع من تولد الغضب، وعلاج يذهب بحدوثه بعد تولده.

ولا يخفي أن الناس في تركيب أمزجتهم يختلفون سرعة وبطئاً في تولد الغضب، إلا أن هذا ليس بشيء في جانب ما يعتورهم من الأسباب الطارئة التي تزيد في تولد غضبهم كالمرض، وضعف البنية، والانهماك في العمل، ومداومة السهر، واشتغال البال بالمطامع والمطالب، إلى غير ذلك مما يهيء التنازع في الجسم والنفس، ويكون كالبذور للغضب، ولكن السبب الأقوى هو تعوّده. فإذا تعود الإنسان الغضب أصبحت العادة مساعدة على نمو بذوره.

أما الاستعداد الطبعي في سرعة الغضب، فلا سبيل إلى محوه بالكلية، وأما الأسباب الطارئة فإنها تعالج أولاً بإصلاح ما فسد من الجسم كيلا يتولد منه كدر النفس، ثم تأخذ في دفعها واحدة إثر أخرى، فمنها تأثر النفس من شعورها

بالإهانة، ويجب لدفع هذا ألا يعجل الإنسان في الحكم على شيء، ولا يأخذ بظواهر الأمور، لأول وهلة، لأنه ربما وجد في طياتها ما يغير منها، وتكون الحقيقة على خلاف ما تصور في بادئ الأمر. ثم يجب على الإنسان أن يتجنب على قدر طاقته، ما هو قائم في كل نفس من تسرعها في تصديق ما يكدرها قبل التمكن من الحكم الصحيح، وقد نرى نفوساً كثيرة تجاوزت الحد حتى صار سوء الظن عادة لها وديدناً، وكم غضب الإنسان من صاحبه لابتسامة، أو لحظة، أو لفتة، أو إشارة، يؤولها سوء ظنه تأويلاً سيئاً، مع أن الواجب عليه أن يحملها أولاً على المحمل الحسن وأن يقف غضبه، حتى تتبين له الوجهة المثلى. لأن الانتقام إذا تأخر يمكن استدراكه، ولكنه إذا وقع تعذر تداركه. يحكى أن أحد اليونانيين تآمر على ملك ظالم، فاستكشف المؤامرة أعوان الملك وأخذوا في تعذيب الرجل ليدل على شركائه، فشرع يسمى للملك واحداً بعد واحد من خاصة الملك وبطانته، والملك يغضب، فيأمر بقتل كل واحد ممن سماهم، وما زال الرجل يسمى، والملك يثور به الغضب، فيأمر بالقتل، حتى أتى على جميع المخلصين له، ثم سأله «هل بقي أحد؟ فقال له الرجل لم يبق إلا أنت وحدك، لأني لم أترك لك شخصاً أميناً تعز عليه حياتك، فكانت سرعة الحكم في حدة الغضب، معينة للرجل على الملك حتى جعله يفني بيده

جميع من يثق بهم، وبقي من بعدهم وحيداً بغير معين، ولكن انظر إلى ما فعله الإسكندر الأكبر من التروي والتأني في الحكم، فقد كتبت إليه والدته تنصح له بالتوقي والتحرز من طبيبه، وأن يمتنع عن الدواء الذي يقدمه له إذ قد دس فيه السم. فلما جاء الطبيب بالدواء تناوله منه فشربه بيد وناوله كتاب والدته باليد الأخرى، ولم يفعل ذلك إلا بعد التروي والتثبت من أن طبيبه الذي وضع ثقته فيه، لا يمكن أن يخونه.

ومثل ذلك أيضاً ما يروى عن أحد الملوك الفاتحين أنهم جاءوا إليه بعد الفتح بصندوق يحتوي أوراقاً يتخاطب بها أعداؤه، مع رجاله، فأمر بإحراقها، من غير أن يطلع عليها، ولم يجعل نشرها سبباً للغضب عليهم والانتقام منهم.

فينبغي للإنسان ألا يتسرع في تصديق كل ما ينقل إليه قبل التثبت منه، والتغابي في كثير من الأمور خير من إعلانه خيانة الناس له:

ليس الغبي بسيد في قومه
لكنّ سيد قومه المتغابي

وليبعد، ما استطاع، بنفسه عن سوء الظن والتوهم، فإذا رأى أن صاحبه مثلاً قابله بتحية لا تليق به، أو أن وجه صديقه لم يكن باشا عند لقائه، أو أن جليسه قطع عليه

الحديث، أو أن خليله لم يدعه إلى وليمة، أو أنه أعرض عنه عند مقابلة، فليبادر إلى التماس العذر له، لا إلى سرعة الغضب منه، لاحتمال أن يكون صاحب التحية مشغولاً بأمر يهمه، والمقطب مهموماً بحادث ألمّ به، وقاطع الحديث خشي من فوات المناسبة لغرض له، وصاحب الوليمة كان عذره النسيان، والمعرض عند المقابلة كان مشتغل النظر بأمر آخر، إلى غير ذلك من الأسباب التي كثيراً ما كان إهمال التبصر فيها، وللتسرع إلى سوء الظن سبباً إلى وقوع العداوة والبغضاء بين الأصدقاء والخلطاء، ومدعاةً إلى تعوّد الغضب والاستمرار عليه، أضف إلى ذلك كثيراً من الأمور التافهة الواهية التي يغضب منها الإنسان من غير حق ولا تمييز، مثل أن يغضب من بطء الخادم في حركته، أو من خلل في نظام مائدته، أو فراشه، أو موضع شيء من أشيائه في غير موضعه المعيّن له.

فالغضب لهذه الأسباب الواهية، ضرب من الجنون منشؤه ضعف النفس وارتخاؤها من طول التنعم والترف، حتى صارت تتأثر بأقل مؤثر، كما حكى عن ذلك المتنعم الذي نظر إلى حاطب يجهد نفسه في تقطيع الخشب، فأثر فيه ذلك المنظر لضعف قواه. فكان الحاطب يقطع وصاحبنا يعرق له، أو كمثل الذي نهك الترف جسمه، إلى درجة جعلته يتململ

على فراشه من مس الأزهار المنثورة تحت ملاءته. وليس الزهر هو الذي آلمه بخشونته وإنما آلمه رخاوة جسمه المسموم بالترف والتنعم، وكم من واحد منهم أخرجه الغضب عن طوره لعطسة عطسها الخادم، أو سعال اعتراه في حضرته، أو من تقصير في طرد ذبابة، أو من وقوع مفتاح على الأرض أزعجه صوته، ومنهم من تصدر عنه الفعال الكثيرة التي يجور فيها على نفسه، ثم على إخوانه، والأقرب فالقرب من معامليه، حتى ينتهي إلى خدمه وأهل بيته لسبب من تلك الأسباب الواهية. فيكون عليهم سوط عذاب، لا يقبلهم عثرة، ولا يرحم لهم عبرة، وإن كانوا أبرياء من الذنوب بل يتجرم عليهم، ويهيج فيهم فيبسط يده ولسانه، وهم لا يمتنعون عليه، ولا يتجاسرون على رده، بل يذعنون وسيقرون بذنوب لم يقترفوها استكفافاً لعاديته، وتسكيناً لغضبه، وهو مع ذلك يستمر على طريقته، لا يكف يداً ولا لساناً، وقد شاهدنا منهم من يتجاوز به الغضب على نوع الإنسان إلى البهائم التي لا تعقل، وإلى الأواني التي لا تحس، فربما قام إلى الحمار، أو إلى الفرس، فضربهما ولكزهما، وربما كسر الآنية، أو عض القفل، إذا تعسر عليه، وربما كسر القلم إذا تعلقت به شعرة من الدواة، اجتهد في إزالتها فلم تزل.

كان أحد ملوك اليونان يغضب على البحر إذا اهتاج واضطرب وتأخرت سفنه عن النفوذ فيه، فيقسم ليطرحن الجبال فيه، حتى يصير أرضاً، ويقف على الشاطئ يهدد الأمواج ويزجرها، حتى تنتفخ أوداجه، ويحتقن وجهه، فإذا علمنا أن الترف والتنعم هما من أكبر الأسباب المولدة للغضب، كان أول علاج لدفعه تربية الجسم والنفس بالرياضة والأخشيشان. ويغضب الإنسان على من يكون من شأنه أن تصدر عنه إهانة، وعلى ما ليس من شأنه أن تصدر عنه إهانة قط لخلوه من الإرادة، مثال ذلك أن يغضب من زر من أزرار قميصه استعصى عليه فيمزق القميص، ويغضب من حذائه لضيقه فيرمي به إلى الحائط، أفليس من الجنون أن يغضب الإنسان على أشياء لا تدرك ولا تحس ولا يؤثر فيها الانتقام؟

ولعلّ قائلاً يقول: «إن الإنسان لا يغضب على هذه الأشياء في نفسها ولكن يغضب على صناعها» فنقول إن غضبه يسبق هذا التمييز فهو يعقل ما يفعله بها، وليس في فكره أدنى تصور لمن صنعها. ولو فرضنا أن كان غضبه على صانعها فما يدريه لعلّ هؤلاء الصنّاع لهم أعذار مقبولة كعجز أحدهم مثلاً من إتقان صنعه، وما معنى الغضب عليه، وهو لم يقصد أن يغضب أحداً البتة. ومع ذلك فلو استحق هؤلاء الصنّاع غضب الناس عليهم، فلا يليق بالعاقل أن يغضب على الأشياء

المصنوعة كما أنه لا يغضب على الحيوانات التي لا تعقل وهي لا تفعل شيئاً بنية الإهانة، وإنما تفعل ما تفعله للدفاع عنها.

فإذا كان الغضب لا يجوز على الجماد، ولا على الحيوان فهو لا يجوز أيضاً على الأطفال والصبيان، ولا على الذين انحطت قواهم العقلية، فصاروا في منزلة الأطفال وإن شابت نواصيهم، وتقوست ظهورهم، والقاضي العادل لا يحكم في هذه الحال بعقاب لفقد التمييز.

ومن الأفعال ما يكون خالياً من إرادة الأضرار، كالجمادات والحيوانات، ومنها ما هو خالٍ من إرادة الأضرار، كالتقويم والتأديب. ومن هذا القسم القضاة العدول، والآباء، والأمهات، والمعلمون، والمؤدبون، فإن ما يصدر عنهم من العقاب فيه من المنفعة لك. مثل منفعتك بدواء الطبيب، وإن كان مراً، والعمل بالحمية وإن كانت مكروهة للوصول إلى الشفاء من المرض، فيجب على العاقل أن يكون نظره متجهاً دائماً إلى المقاصد والنتائج من الأقوال والأفعال، ولو أنصفنا لوجدنا أن ما ينالنا من عقوبة القضاة والآباء، والأمهات، والمؤدبين، هو أدنى بدرجات من مقدار الذنوب التي ارتكبناها، غير أن اعتقادنا في أنفسنا البراءة من كل ذنب، حتى نكاد نقول بعصمتنا، هو الذي يكبر في أعيننا

حد العقاب، ولكن إذا أيقنا أنه ما من أحد يخلو مما يلام عليه، في السر والعلانية، هان عليه الأمر، فلم يغضب لجزاء، أو عقاب نزل به، وكل غضب من هذا القبيل، فإنه ذنب آخر يضاف إلى ما ارتكبناه، اسمه الصلف والكبرياء.

أين الرجل الذي يقدر أن يقول للقانون ليس لك علّى سلطان لطهارة ذيلي في السر والعلن! إن كل إنسان في هذا العالم لا بد أنه فعل شراً ما، أو همّ به، أو فكر في فعله، أو تمناه، أو ساعد غيره عليه، فإذا تبجح متبجح بأنه لم يفعل شراً في دنياه، فتكون حقيقة دعواه عدم نجاحه في إيقاع الشر. وعلى هذا إذا أنصف الإنسان من نفسه، وعلم أنه مصدر للخطأ والذنوب، قابل ما يقع عليه من العقوبة بالرضا، ولم يأنف من توجيه اللوم إليه.

ولنرجع إلى ما كنا فيه، فإذا قيل لك إن فلاناً تكلم فيك بسوء، فلا تعجل في الحكم، بل أبحث في الأمر، بحث الرجل المنصف. فلعلّك فعلت معه ما أوجبه للكلام فيك، ثم ارجع إلى نفسك تجدها قد فعلت بالناس ما فعله ذلك المتكلم بك، وقلت فيهم مثل ما قاله فيك أو أكثر منه، وأجمل ما أتاه معك على التشبه بك، والمساواة لك. لا على التعدي عليك، أو تحمله على مناسبات الحديث، وإرسال النكتة، ولطالما اندفع المحدث إلى سوء القول، التماساً

للنكتة لا سواها، فجاءت بأوخم العواقب، ومما يحكى في هذا الباب، أن أحد ملوك اليونان القدماء كان أعور، وكان اصله طاهياً، فانحرف ذات يوم عن شاعره وجفاه، فقال أحد الأصدقاء للشاعر: أنا على يقين أنك لو ذهبت إليه والتمست منه العفو لعفا عنك. فقال أخاف أن يأكلني «السيكلوب» نيّاً. (والسيكلوب حيوان خرافي بعين واحدة) فجمع في هذه الكلمة بين التعريض بالعور والطباخة، وسمع الملك بذلك فأمر بقتله، وما جره إلى ما قال إلا إرسال النكتة وحده.

ثم احمل ما يقال فيك أيضاً على الجهل بك من قائله، ولنفرض أنه قال ما قاله متعمداً، ألا يجوز أن تكون مصلحته متوقفة على تلك الكلمة؟ وأن نجاحه في حاجته لا ينال إلا بها، ولكن أين نجد هذا الرجل العاقل المنصف من نفسه؟ أنجده في الرجل الشهواني الذي يستهوي امرأة غيره ويخدعها مع اجتهاده في المحافظة على زوجته والغيرة عليها؟ أنجده في الرجل الخائن الذي يطلب مع خيانته الوفاء من الناس؟ أنجده في الرجل البخيل الذي يعير البخلاء؟ أنجده في الرجل الحانث في إيمانه الذي يشمئز من حنث غيره؟ أنجده في الرجل المطبوع على المكر والكيد وهو يشكو مكائد الناس؟ لقد تعودنا أن ننشر عيوب الناس على أعين الناس، ونطوي عيوبنا وراء ظهورنا فترى الوالد يعيب على ولده الانهماك في

الملاذ والشهوات، مع كونه أقل انهماكاً من أبيه، ونرى الظالم الجائر يغضب على غيره إذا تعدى على أحد، وترى قاطع الطريق يغضب على السارق، ولكنك إذا أمعنت النظر وجدتهم لا يغضبون للفعال وإنما يغضبون على الأشخاص.

وعلى هذا فإذا نظرنا نظرة الإنصاف في نفوسنا، كنا أكثر سماحاً وأعظم غفراناً للغير، لأننا ارتكبنا من مثل الأفعال التي نغضب لها الشيء الكثير.

ومن علاج الغضب أن تنصح الغضبان ليقف وقفة في غضبه، فإذا وقفها وكان ممن يتفكر ويتدبر، خف غضبه ثم زال، ولا تأملن أن تنتزعه من يد الغضب دفعة واحدة، فذلك ما لا سبيل إليه، وإنما يزول الغضب شيئاً فشيئاً حتى يذهب أثره.

إن الأمور المسيئة المهينة لا تخلو من أن تكون منقولة أو مسموعة، أو مرئية. أما المنقولة فلا ينبغي التسرع في تصديقها، فإن كثيراً من الناس يكذبون إما بقصد الغش والخديعة، وإما أن يكونوا قد اتخدعوا بالكذب فنقلوه، فترى أحدهم يرمي الآخر بكراهته لك، تذرعاً إلى مودتك، وطلباً للمنزلة عندك، فهو ينقل إليك السوء ليظهر من خلاله مكانتك عنده وشفقته عليك، وترى بعضهم تدفعه دوافع الحسد والمنافسة، ليفصم، بنقل السوء، عرا المودة بين بعض

المتحابين وبعض، يفعل ذلك لمجرد التسلية والتمتع بمشاهدة وقوع الشقاق بين الناس وهو بعيد عن خطر الوقوع فيه.

والعجب للإنسان يكون قاضياً بين المتخاصمين، فلا يحكم بينهم ولو في مسألة واهية، إلا بعد التحقيق والتدقيق، وشهادة الشهود، ومناقضة الخصوم، حتى تتجلى له الحقيقة واضحة، فيحكم حكمه؛ ولكن إذا سمع كلمة السوء، منقولة عن صديقه، بادر في الحال إلى تصديقها من غير استشهاد عليها، أو سؤال صديقه، وما أسرع ما تأخذه جدة الغضب، فيتجهم لصاحبه، وينزوي عنه، وتحل العداوة محل الصداقة، ويحكم عليه بارتكاب السوء، والمحكوم عليه لا يدري ما ذنبه، ولا يعلم من الذي اتهمه، ولقد يبالغ المرء في التصديق والحكم كأنه قد شاهد وخبر، وحقق وتأكد، والناقل هنا يكون أسرع الناس إلى إنكار ما نقله إليك، إذا دعى إلى إثباته، وربما أوصاك وهو ينقل إليك ألاّ تذكر اسمه، واشترط عليك أنك إذا ذكرت اسمه أنكر ما قاله، وأنه لا يخبرك بشيء بعد ذلك، فهو يدفعك إلى ميدان العداوة من جهة، ويتحاماه، من جهة أخرى، ومن كانت هذه حاله في نقل القول متسترا، فهو المخبر المنكر في آن واحد، فهل ترى بعد هذا شيئاً أفظع من أن تظلم صاحبك بتصديق خبر مكذوب، نقله الناقل إليك في الخفاء، فأسرعت إلى مقابلة

صاحبك على أعين الناس بالعداء والجفاء؟

وأما المسموعة أو المرئية، فيجب علينا فيها أن نكون على علم بطباع من صدرت عنه، وعلى بينة من نيته، فإن كان المسيء إليك صبياً وجب عليك أن تعذره لصغر سنه، فإنه في هذه الحالة لا يدرك ما صدر عنه من الشر إدراكاً صحيحاً. وإن كان والداً لك فإما أن تجعل ما له عليك من الحقوق والمنن المتوالية مكفراً عن تلك الإساءة وإما أن تعتبر ما تحسبه إساءة منه، نعمة جديدة عليك في تقويم أخلاقك، تضاف إلى نعمه السابقة. وإن كان المسيء امرأة فالنساء غرائر، وإن كان المسيء مضطراً إلى ذلك لسبب من الأسباب، فليس من الإنصاف أن تغضب على المضطر، ويجوز أن تكون أنت الذي اضطررته بما ابتدرته به من الإساءة وليس في المكافأة من إساءة. فإن كان المسيء من غير ذوي الإدراك، حيواناً كان أو غيره، فشعورك بالإساءة منه نزول إلى درجته، وسقوط إلى منزلته، فإن كانت الإساءة من مرض ملم، أو خطب مفاجئ، فاحتماله بعزم الرجال يخفف منه، وإن كانت الإساءة بقضاء الله وقدره، فلا عتب على القضاء ولا غضب على القدر. وما للعاقل إلا الرضا بأحكام الله في سرائه وضرائه.

فإن كان من ظننت صدور الإساءة عنه من أهل الفضيلة،

فلا تركن إلى الظن «إن بعض الظن إثم» وإن كان من أهل النقيصة فلا تعجب ولا تغضب من صدور الإساءة عنه.

فإن كان المسيء مسخرا مستأجرا، فسوف ينكفئ ـ بعد إتمام إساءته ـ نادماً، وكفى بالندم عقاباً.

فإن قال قائل إن في الغضب ارتياحاً، وفي مقابلة الشر بالشر لذة، أنكرنا عليه ذلك كل الإنكار، وقلنا له إذا كان في مقابلة الخير بالخير لذة، وكان وجه المعروف والجميل جميلاً، فإن مقابلة الشر بالشر، على النقيض من ذلك، والكريم من يخجل من الانهزام في ميدان الخير، كما يخجل من الانتصار في ميدان الشر.

أما الانتقام فهو مما يترفع العاقل عنه، وإن كان يتناول معنى العادلة، وهو لا يختلف عن بادرة الغضب إلا بمضيّ الزمن في التربص له، ومهما خف الانتقام، ولطف، فإنه لا يفترق عن الإساءة والإضرار إلا بالتماس العذر لفاعله. لطم أحد الناس حكيماً من الحكماء في طريقه، فلما رجع يعتذر إليه عن اللطمة، قال له الحكيم: «فيم الاعتذار! ما اذكر أنك لطمتني» فرأى بحكمته أن تناسى الإساءة والتغافل عنها، أجمل في النفس من ذكرها، وأفضل من الانتقام لها، وأرقى من أعفو عنها، ولقائل أن يقول: «أما وجد الحكيم حرجاً ومضضاً في نفسه من وقوع تلك اللطمة عليه»؟. فنقول كلا!

بل وجد ارتياحاً وانشراحاً، لأن النفس العظيمة يزدهيها أن تحتقر الإساءة ومن صدرت عنه، وأشفى من الانتقام وأعظم منه أن يحس المسيء إليك أنه ليس أهلاً لأن يستفزك الغضب عليه.

وكم من منتقم لأمر صغير جره الانتقام إلى أمور عظيمة، وأضرار بليغة. فلنترفع ولنتكرّم ولنفعل ما يفعله ملك الضواري إذ رنّ في أذنه عواء الأكلب الغضف فلم تطرف نحوها عينه ولم يلتفت إليها بعنقه.

فإن قلت: «إن الانتقام يوجب الاحترام والتوقير» قلنا إنك إذا أردت أن تستعمل الانتقام كالدواء، فلا حاجة بك إلى إضافة الغضب إليه، ولا ضرورة لأن ترى فيه ارتياحاً أو استشفاء، ولكن حسبك أن تعتبره فعلاً نافعاً.

ويجب على العاقل أن يحتمل الإساءة من ذوي السلطان بالصبر، لا بل بالقبول والارتياح، لأنهم إذا شعروا بسوء قبولها، وشدة تأثيرها، زادوها أضعافاً.

وأكبر عيوب الذين أسكرهم الدهر بالمناصب والمراتب، أنهم يضيفون إلى إساءتهم الحقد على من أساءوا إليه، على أنه لا محل للحقد بعد الإساءة، وقد قيل لرجل شاخ وهرم في خدمة الملوك: «كيف بلغت هذه السن وهي شاذة نادرة في حاشية الملوك»؟ قال بلغتها بقبول الإساءة والشكر عليها!

وقد يوجد الإنسان في أحوال يكون إظهار التأثر فيها من الإساءة أشد خطراً منها. يحكى عن أحد الظالمين من قياصرة الرومان أنه امتعض من تكلف أحد الشبان من أولاد الكبراء لزيه وشكله، وشارته وزينته، فأمر بسجنه، فجاء أبوه يلتمس العفو عنه فقال له القيصر قد قتلته (وأوعز في الحال بقتله) ثم أراد أن يخفف عن الوالد مصيبته، فدعاه إلى شرف الطعام على مائدته في مساء ذلك اليوم، فحضر الرجل، وليس على وجهه أثر من الحزن والغضب، فناوله القيصر بيده كأساً من الخمر، فشربها، وكأنما يناوله دم ابنه، ثم أمر القيصر بتضميخه وتعطيره وتتويجه بالزهور كما هي العادة في مجالس أنسهم، ووكل به من يراقبه، فتقبل الوالد كل ذلك بالطلاقة والبشاشة، ثم أخذ مجلسه من مائدة القيصر، مع تسعة وتسعين من الكبراء والعظماء، وظل في مساء اليوم الذي قتل فيه ابنه يتفانى معهم في لهوهم ولعبهم، مع ضعفه وشيخوخته كأنما جاءته البشرى بمولود.

وكأني بك تقول، ما سبب هذه المذلة والمسكنة؟ فأقول لك كان للرجل ابن ثانٍ يريد أن يحفظ حياته، من هذه اليد المطلقة في الظلم، وما كان الرجل ليتأخر عن مصادمة ذلك الجبار، لو كان ما يخشاه متعلقاً بشخصه وحده، ولكن المحبة الأبوية تغلبت على كل تأثر وانفعال، ولولا كتمانه ما

يغلي في صدره من الحزن، وإظهاره ما تكلفه في حضره الملك من البشاشة والمجاراة في اللهو واللعب، لكان الابن الثاني لحق بالابن الأول. والعقل يرشدنا إلى أن نمتنع عن الغضب على من هو ندّ لنا، وعلى من هو فوقنا في القدر، وعلى من هو دوننا في الدرجة، فإن الانتصار في مصارعة الند أمر مشكوك فيه، ومصارعتك من هو فوقك جنون، ومصارعتك من هو دونك سفالة ودناءة.

ومن وسائل تسكين النفس عند الغضب، أن تتذكر للمغضوب عليه يداً في المعروف أسداها إليك، فيكون ما أتى به من الخير فيما مضى غافراً لما فعله من الشر فيما حضر، ولا تنس ما يعقب العفو والحلم، من حسن السمعة وجميل الشهرة، وكم من صديق حميم اشتريته بالعفو والحلم، ولا شيء أبدع من استخراج الصداقة من العداوة، وابلغ القول في هذا الباب ما جاء في الكتاب الكريم ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤) وقوله أيضاً ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ (الرعد: ٢٢).

ومن السفاهة والحمق، أن يتناول غضبك الأبناء لذنوب الآباء والأجداد، فتحمل عليهم حملة الظلم، لحقدك على أسلافهم، وقد قال الله تعالى ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأنعام: ١٦٤).

ومن وسائل تسكين النفس أيضاً، أن تتذكر وقوفك بين يدي من لا يرحمك، ولا يعفو عنك، فإن أرضاك ما تراه من القسوة عليك، فلك أن تعامل بها من وقف بين يديك، وكم من مرة رفضت فيها العفو عن سواك، فأنزلك الدهر إلى طلب العفو منه، ورماك الزمن تحت أقدام من كانوا يلتمسونه منك بالأمس، وإذا قيل لك إن فلاناً قلب النحاس ذهباً، والحصى دراً، طال إعجابك به، وإعظامك له، وعددت ما صنعه من الخوارق. ولكن من يقلب العداوة صداقة، والبغض محبة، والحرب سلماً، والمكافحة مصافحة، أولى بالأعجاب، وأحق بالإعظام، ومن وسائل تسكين النفس، أن تتصور ما تكون عليه هيئة الغضبان من تشويه الوجه، واضطراب الأعضاء في ظاهر الجسم، فما بالك بما تكون عليه النفس في باطنه، ومن وصايا بعض الحكماء إذا غضبت فأسرع إلى النظر في المرآة. ومن الجنون أن يغضب الإنسان لدرهم، فيصاب من الغضب بمرض لا يكفي ماله كله لعلاجه. وحدة الغضب يقع شرها على الغضبان نفسه، ويمزق ثيابه، وينزع شعره، ويعض يديه، ويلطم وجهه، وقد رأينا أحد الحكّام في مصر كان يعض من يغضب عليه، فكان لكبر سنه يفقد في كل عضة سناً من أسنانه حتى إذا فنيت أسنانه الطبيعية ووضع مكانها أسناناً صناعية، لم تتركه عادة العض عند الغضب، فكان كلما غضب على إنسان ترك صف

أسنانه فيه، فيقوم من دسته مهرولاً، وراء الرجل وهو يفر من أمامه، ويناديه بفيه المشوّهة «ويلك! أسناني! أسناني! حتى يردها إليه بعض الحجاب، بعد أن صار ضحكة الحاضرين.

واعلم أن الأهواء النفسية، تدخل في النفس تدريجياً إلا الغضب، فإنه يدخلها دفعة واحدة، فيتغلب على بقية الأهواء. ويتسلط عليها، ويبقى وحده قائماً فيها يتصرف كما يريد، فهو لذلك أعظمها شراً، وأكثرها ضرراً، وكم غضب العاشق - والعشق أكبر أهواء النفس - فقتل معشوقه، وقد يغضب البخيل - والبخل من اثبت الأهواء في النفس - فبسط يده في ماله، وبعثر ثروته، توسلاً إلى الانتقام، وتوصلاً إلى التشفي، وقد يغضب المتفاني في حب المعالي والمراتب فيهدم في لحظة واحدة ما بناه من المجد في أعوام. وهلم جرا.

وينبغي لعلاج الغضب باستئصاله، أو وضع حد لاندفاع النفس فيه، أن يكون مناسباً لحالته. فتارة نقاومه بالكشف والصراحة إذا كانت حالته خفيفة، تساعده على ذلك. وأحياناً باتخاذ طرق المداراة والاحتيال لدفعه إذا كانت المقاومة والمعارضة مما تزيد في شدته، وعلى كل حال لا بد أن ننظر أولاً إلى درجة نموه. وهل يجوز مقاومته أو التسليم له في أول هجماته وشدة باسه، خشية أن تزيد المقاومة في اندفاعه،

كما يندفع السيل فيقتلع الحواجز؟ والمعوّل في ذلك كله على معرفة أخلاق الغضبان، فمن الناس من يهدأ غضبه، وتزول عنه سورته بمجرد الخضوع والامتثال لأمره، ومنهم من يتضاعف غضبه ويشتد على مقدار التضرع والترجي، ومنهم من يسكن غضبه بالإرهاب والتخويف، ومقابلة الانفعال بمثله، ومنهم من يسكن غضبه إذا أقر المغضوب عليه بذنبه وأنه لا يعود إليه، ومنهم من لا يسكن غضبه إلا بمرور الزمن. وهذه آخر درجات العلاج وأبطؤها. ولا يخفى أن سائر الرذائل يمكن وقفها عن سيرها مدة التأجيل في العلاج إلا الغضب فإنه كالعاصفة في انطلاقها، والصاعقة في انقضاضها، فلا يتمهل ولا ينتظر، بل يولد قاهراً في أشد قواه. وليس من خاصته أن يأتي النفس للاستيلاء عليها من طريق الاستدراج كبقية الرذائل، ولكنه يسحبها سحباً، فيقذف بها في هاوية الشر، ولو كانت النتيجة وقوع الضرر كله عليها. والغضبان يصرع نفسه ويصرع المغضوب عليه، ويصرع ما يلاقيه في طريقه مما لا ارتباط له بالحادثة مطلقاً. والرذائل تجر النفس إلى الهلاك، ولكن الغضب يقذفها، وأن لها لفترات ولكن لا فتور للغضب ولا هوادة، وينشأ بعض الرذائل من انحراف في صحة النفس يدب فيها، ويدرج، فلا تشعر بتقدمها فيه، والغضب حمى نازلة تصرعها مرة واحدة، وبغضّ النظر عن درجات الأسباب المغضبة في صغرها

وكبرها، فإن الغضب يدفع بصاحبه إلى أقصى درجات التهور من أوهى الأسباب، كما يبلغها من أعظم الأسباب ثم هو لا يستثني كبيراً ولا صغيراً، ولا يسلم منه شخص بمفرده، ولا أمة بمجموعها.

وقد وجدنا أمماً وشعوبا تسلم من بعض الرذائل. فلا تكتنفها، فمنها التي يمنعها فقرها من رذيلة الفضول في العيش، ومنها التي تحول طبيعة بداوتها دون البطالة والكسل، ومنها التي لا تعرف الغش والخداع لسلامة أخلاقها الفطرية، ولكنك لا تجد أمة سلمت من رذيلة الغضب وبوائقه، فهو شديد الأثر عند العرب، كما هو شديده عند العجم، شديده في المدينة ذات القوانين والشرائع كما هو شديد في الجاهلية الجهلاء، وقصارى القول أن سلطة الرذائل النفسية تتناول الأفراد والجماعات، فما سمعنا أن أمة بأسرها شغفت بهوى امرأة، أو أنها ابتليت كلها بآفة البخل، إلى غير ذلك، ولكنا طالما سمعنا أن الغضب استولى على أمة بأجمعها فساقها تحت رايته رجالاً ونساء شيوخاً وغلماناً، عظماء وأدنياء، فجعلوا ينفرون سراعا إلى ميدان الغضب، وتكفيهم الخطبة الواحدة، والصرخة النافذة، للهياج والثوران. ومن العجب في هذا الشأن، أن المثير للغضب، والمشعل لنيران الثورة، والنازل المتقدم، لا يلبث أن يكون مسبوقاً بعد أن كان

سابقا، ومقوداً بعد أن كان قائدا، فتفز الأمة فزة واحدة، وتلقي بنفسها بين النار والحديد، فتحارب جارتها إن لم تحارب نفسها بنفسها، وتخرب وطناً بأسها.

ويجب لدفع الغضب عن النفس أن تبعد بهما عما يجهزها لحلوله. فلا تزاول من مساعي الحياة، ومطالب الدنيا، ما يزحمها ويكثر همها. ولا تقتحم بها مجاهل المطامع، وفيافي الآمال والأماني، ولا تحملها ما لا تطيقه، فيتكدر صفوك ويضيق عطنك. فيجد الغضب وقوداً لضرامه في الصدر، وقدحاً لزنده في القلب، ومن كلمات الحكيم «أبقراط»: إذا أردت أن تعيش هادئ البال هنيء العيش، فلا تزحم نفسك بكثرة المطالب، وتعدد الأعمال خاصة كانت أو عامة، ولا تقصد منها إلا ما كان مناسباً لقواك حتى لا يثقل عليك حمله».

ومن كان مقسّم الأوقات بين المطالب المتعددة، والمقاصد المختلفة، استحال عليه أن يسلم من مصادمة الموانع والحواجز في طريقه، من الأشخاص والأشياء، فيهيج منها غضبه، ومن دخل سوقاً كثير الزحام وهو يعدو، فلا يسلم من التعثر بأذياله، ومصادمة هذا، ومعارضة ذاك، والوقوع تارة، والقيام أخرى، وكذلك من يتصدى لمباشرة أمور جمّة، وأعمال متنوعة. يقف عليها حياته، فإنه يكون في كل أوقاته عرضة للأحزان وهي بساط الغضب في النفس،

ولشد ما تجد في طريق أعمالك من يقابلك بضدّ ما تأمله، ومن يقف سدًّا أمام مطلبك، ومن يبادر إلى اختطاف الفائدة التي تنتظرها من مسعاك. ومن يدفعه الحسد فيسعى في قلب المنفعة من أعمالك إلى المضرة، وكثيراً ما يخيب المطلب الذي تثق بالنجاح فيه. والدهر لا يخدم إنساناً إلى درجة أن يتوّج أغراضه التي تعد بالألوف بتاج الفوز والنجاح، بل تتعدد الخيبة على قدر تعدد المطالب، فتشمئز نفسه حينئذ، ويتكدر خاطره، ويستعد للغضب من أوهى الأسباب، فيغضب على الإنسان، والحيوان، والجماد، بل يغضب على القضاء وعلى نفسه أيضاً. فهدوء البال وصفاء النفس متوقف على أن لا تنهك قواك ولا تحمل نفسك ما لا تطيق. وإنه ليسهل على المرء أن يحمل حملاً ينقله من كتف إلى كتف كلما أتعبه ثقله، ولكنه إذا وضع الحمل الثقيل على كاهله فوق مقدار قوته لم يلبث أن ينوء به ويسقط تحته إعياء، وكذلك شأن الأعمال الإنسانية، منها ما هو هيّن يقوي الإنسان على القيام به، ومنها ما هو ثقيل شديد يفوق طاقته، إذا همّ لم ينهض به، وإذا نهض أنهدّ به، فعليك أن تختبر قوتك قبل الشروع في الأعمال وتقابلها بقوة العوارض والموانع، ولتكن أعمالك متوسطة لا تفوق طاقتك، ولا تترك نفسك تحاول ما فوق قدرتها. فإن الأسف الذي يعتريها من خيبة المسعى ينقلب غيظاً وكمداً، ويجعلها دائماً مستعدة لحركة الغضب.

واعلم أن عدوى الأمراض في انتقالها إلى الأجسام، ليست بأسرع من عدوى الأخلاق في سريانها في النفوس، فابذل جميع جهدك في اختيار الصاحب، والمعاشر، والمقارن، فإن الإنسان جبل على التقاليد، والطبع سراق، «وكل قرين بالمقارن يقتدى». فالخليع يجر صاحبه إلى الخلاعة، والأحمق يقود عشيره إلى الحماقة، والبخيل يسحب رفيقه إلى البخل، والعدوى في الرذائل مثلها في الفضائل، فعليك بمعاشرة من كان دمث الأخلاق، سهل الطباع، ليّن العريكة، فتكتسب النفس منه من حيث لا تشعر، ولعمرك ما تفعل جودة الإقليم، واعتدال الجو، ونقاء الهواء في نقاهة الجسم المريض، ما تفعله مخالطة ذوي الفضائل في شفاء النفس المريضة. وأكبر فائدة في معاشرة أصحاب الأخلاق الكريمة والسجايا السمحة، أنك لا تجد عندهم من الأسباب ما يهيج له غضبك، واجتنب ما أمكنك مخالطة من كان متكبراً فيحتقرك، ومن كان في طبعه السخرية فيهزأ بك، ومن كان كثير الجدل فيخاصمك، ومن كان سفيهاً فيسبك، ومن كان سيئ الظن فيشك فيك، فتكون معرضاً بينهم على الدوام لثوران غضبك، بخلاف الخلطاء من أهل الفضائل فإنهم لا يصدر عنهم ما يحرك الغضب، بل يبادرون إلى تسكينه إذا ثارت ثائرته.

ويجب على من كان سريع الغضب أن يخفف عن نفسه من الاشتغال بالعلوم المجردة، والدروس العقلية العويصة، فلا يذهب فيها إلى درجة تشق على القريحة، وتكد النفس فتتعبها، وتهد قوتها، فتضعف وتعتل، وتصبح قابلة لسرعة التأثر، ويعين ضعفها على تسلط الغضب عليها. وكما أن الجسم إذا جهدته بالحمل الثقيل والعمل الشاق ولم تجعل له فترة لراحته وتجديد قوته، حل به الضعف، واستعد لنزول الأمراض به، فكذلك النفس إذا لم ترفق بها وتروحها بما ينعشها ويبعث من نشاطها كلّت وملّت. فإذا أحسست من نفسك الضجر والسأم من مزاولة العلم والدرس فعليك أن تروحها بمطالعة رقيق الشعر وأنيق النثر، ونكت التاريخ، وملح الأدب، وجل بها جولة في روائع الصنائع، ومحاسن النفوس، وقد كان «فيثاغورس» شيخ الفلاسفة إذا أحس من نفسه الضجر والاضطراب في اشتغالها بالعلوم عمد إلى تسكينها وتهدئتها بسماع الألحان الموسيقية، والأنغام المطربة.

ثم اجتنب ما استطعت أن تزج بنفسك في باب التشاحن والتشاجر، والتنازع والتخاصم، والتشاكي والتقاضي، فتصبح موزع النفس، دائم الهم، وما رأيت رجلاً أكثر غماً، وأبلغ نصباً، وأشد غيظاً، وأوسع كمداً، وأسرع غضباً، من صاحب

قضية، يروح ويغدو، جاهداً في قضائها، ويقضي ليله ونهاره في بلبالها. فليكن من أبغض البغض لديك الوقوف أمام المحاكم بخصوماتها ومرافعاتها، وتيقن أن الفوز في هذا خيبة، والربح خسران، ثم تعهد بدنك بمثل ما تتعهد نفسك كما قدمناه لك، فلا تنهكه بالتعب، ولا تهمله من حاجاته الضرورية. ولا تتركه عرضة للجوع والظمأ وطول السهر فيفسد نظامه، ويختل توازنه، وتتغلب عليه المرة الصفراء. وعليك بإدمان النظافة والاغتسال ورياضة الأعضاء، وما يحول دون تزايد الأخلاط وعسر الإفراز، ومن وصايا «فولتير» الفرنسي لبعض أصحابه «إذا كان لك عند أمير رجاء تروم قبوله فاحذر أن تعرضها عليه إلا بعد أن تتحقق من خادمه إن كان الأمير قضى حاجته في صباحه، فإن عدم توازن الجسم يولد كدر النفس فتشمل به كل ما يقابلها من الأمور، ويعم سخطها كل الأشياء، فترى كل حسن رديئاً، وكل جميل قبيحاً. ولقد ترى الرجل تتولاه المرة الصفراء فيكره في يومه ما يستحسنه في غده، إن زالت عنه وبالجملة فإن النفس السليمة لا تسكن إلا الجسم السليم، وأكثر ما يصب الغضب عن ضعاف البنية من الصبيان والشيوخ والمرضى والزمني والعجزة والمقعدين.

ومن أفضل الطرق في منع تولد الغضب ألا يكون

الإنسان شديد التطلع كثير السؤال، أذناً لكل قائل وناقل فلا يندمج في صف أولئك الذين لا يقر لهم قرار. ولا تسكن لهم حركة، إلا إذا وقفوا على ما يقوله الناس فيهم فيجلبون على أنفسهم ما يوقد جذوة الأحقاد في صدورهم والأجمل بالعاقل أن يسمع قول السوء بإذنه ويرى الإساءة بعينه، فيغضى عنها كأنه لم يسمعها ولم يرها، لا أن يبحث وينقب للوقوف على ما يقال فيه في غيبته مما يسوءه سماعه، ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ (الفرقان: ٧٢)، ومن الذي سلم من ألسنة الناس ومن أسنة لومهم وتفنيدهم، وقد قالوا في الأنبياء وافتروا على الحكماء، «وذو الجهل في الدنيا بذي الفضل مولع»، على هذا درجت القرون وكرّت العصور. فإن كنت فاضلاً فلا تتأثر بما يقوله الجاهل فيك لجهله، فإنه لما عجز عن الارتفاع ليساويك في الفضيلة، حاول أن يحطك إلى درجته لتساويه في النقيصة يفتريها عليك، ويدلى بها إلى الناس، فإن أنت تأثرت بأقواله، كنت جديراً بالنزول إلى مرتبته، لأنك قد ساعدته على بلوغ مأربته. واعلم أنك إذا حصلت على جميل الأحدوثة، من رجل واحد من أهل الفضل، لم تبل سوء ذكرك في أفواه ألف رجل من ذوي الجهل، واعتبر نفسك الفائز الرابح، لأن شهادة الفاضل تبقى، وافتراء الجهلاء يزول، وأحسن ما تدفع به إساءة الجهلاء أن تقابلها بالاحتقار والازدراء، والتهاون والاستهزاء.

وأن تقلب هناك الجد مزحاً، واذكر «سقراط» إذ خرج يوماً للتنزه فاعترضه أحد الجهلاء فضربه على رأسه، فالتفت «سقراط» ضاحكاً إلى من حوله وقال لهم: «الآن علمت أن من الخطأ أن يجهل الإنسان متى يجب عليه الخروج من بيته وعلى رأسه خوذة تستر رأسه وتقيه العوارض» ومرور الزمن من أنجع العلاج في سكون الغضب، فإذا هو ثار ثائره، فلا تطاوعه فيما يمليه عليك في الحال، بل تربص، ولا تأت أمراً من الأمور، إلا بعد أن يمر عليه وقت فإنك لا تقدر على تبصر الصواب، وتمييز الرشد من خلال دخانه في التهابه، وكم نظر الغضبان فيما أغضبه بعد ساعة واحدة من انفعاله، فوهنت لديه الأسباب، ووهت العوامل، وعجب من نفسه، كيف يغضب ويحتد لمثلها، وناهيك بما يشمله من الأسف والندم إن كان طاوع غضبه فدفعه إلى إتيان مالا تحمد عقباه من الأفعال، والفضل في إرجاء العقاب إلى ما بعد سكون الغضب، فإن ما يصدر عنك حينئذ إنما يصدر عن روية نفس عاودها رشدها، وثاب إليها صوابها، بعد الاضطراب والاختلال، ويكون العقل هو الذي يملى عليك ما يمليه بحكمته وهدايته، لا الغضب بجهالته وضلالته، فلا خطأ هنا في الحكم ولا ظلم في العقاب، ثم اصرف همك وعزمك، كله إلى رياضة النفس على مصارعة الغضب ومغالبته، عند أول نشأته، فإنك إن تهمله حتى يشب ويضطرم استعصى

عليك علاجه، وعسر عليك صده ورده، وكن منه في موقف الفارس المتيقظ لحركات قرانه عند النزال، فلا يتركه يتقدم عليه ولا يمتاز في الحركة دونه، ومن لم يبادر إلى مكافحة الغضب صرعه. ومن لم يتغلب على بادرته غلبه، ومن لم يعمد إلى إطفاء الشرارة الأولى منه استعر فيه لهبه ومن سمات الغضب عند حدوثه أن يظهر العبوس، والتقطيب، والتجهم، على وجهه الغضبان. فعليه أن يجتهد ما استطاع في محو هذه الآثار عن الظاهر، ليؤثر بذلك في تخفيف الغضب في الباطن، وقد راض «سقراط» نفسه على ذلك حتى وصل إلى أن يقلب تلك العلامات إلى ضدها. فكان من علامة غضبه عند أصحابه، أن ينخفض صوته ويقل كلامه.

ولقائل أن يقول أن ما تشرحه هنا من العلاج أمر صعب الارتقاء، عزيز المنال، ومن لنا بدرجة «سقراط» في الحكمة والعقل، وأشباهه من الحكماء في العلم والفضل، حتى تجري على سننهم، وننسج على منوالهم. قلنا له إن الإنسان من أي طبقة كان إذا أراد أمراً واعتزمه وأرض نفسه عليه، فهو لا شك بالغه. ومن اجتهد في تمكين القوة الحاكمة من نفسه، تغلب بها على الأهواء، وتسلط على الشهوات. وفي قدرة كل إنسان أن يكظم غيظه، ويدفع غضبه، وليس ذلك خاصاً بالعقلاء والحكماء دون سواهم من بني البشر، ونبسط

لك هنا حادثة من حوادث التاريخ التي تعد بالألوف، تشهد في آن واحد بالدرجة التي يصل إليها الإنسان في غضبه من التناهي في الفظاعة والجنون، وبدرجة حكمه على نفسه ودفع الغضب عنه، والمبالغة في الجمود والسكون: كان أحد ملوك الفرس مدمناً للخمر وكان على ذلك، كثير العربدة، فاجترأ عليه أحد خاصته يوماً فنصح له بوجوب الاعتدال لما في سكر الملوك من العيب والنقص وانحطاط المنزلة في أعين الرعية، فقال له الملك: «لا تظن أيها الرجل أن السكر يذهلني عن صوابي، ويفقدني رشدي، وسأريك برهاناً يشهد لك بأنني لا أزال سديد الرأي، سديد النظر. سديد الساعد، وإن استرسلت في تناول الخمر، وأفرطت في السكر» وأمر باستدعاء ابن الرجل الناصح، فلما حضر أشار إليه بالوقوف عند الباب، وأمره أن يرفع يده اليسرى فوق رأسه، ثم تناول قوسه والتفت إلى الوالد قائلاً: «أعلم أني أريد إصابة القلب برمية» وسدد سهمه فرشق به قلب الغلام، فسقط قتيلاً، ثم شق عن أضلاعه وأخذ الوالد فأراه السهم مرشوقاً في سواد القلب، وقال له ساخراً مبكتاً: «أرأيت كيف أسدد الرمي وأنا سكران»؟ فلم يكتف الوالد بإظهار الرضا والقبول أمام هذا المنظر الفظيع، في ابنه، بل ارتقى في النفاق فقال له: «أشهد أن إله الصيد والقنص لا يزيد عن الملك براعة في تسديد المرمى، وإصابة الهدف» فانظر كيف قدر الرجل أن يحكم

نفسه، ويتخذ من قتل ابنه بهذه البشاعة سبيلاً للتملق والتزلف. وإذا صرفنا النظر عما في موقف هذا الوالد من الدناءة والنذالة فقد كان الأجدر به أن يعرض نفسه على الملك ليجرب فيه تسديد السهم بدلاً من ابنه، علمت أن في قدرة الإنسان كظم الغيظ، وإظهار الارتياح بدل الغضب، والانشراح بدل الكدر، في أشد الحالات وأصعب المواقف. لا فرق في ذلك بين الفاضل وغير الفاضل، والحكيم وغير الحكيم.

ودونك حادثة أخرى من هذا القبيل، وهي أن أحد الجبابرة الطغاة غضب على أحد حاشيته، فأمر بقتل أولاده وأن يطبخوا لحومهم، ثم دعا الوالد وأمره أن يأكل منها، وقال له: «ما تقول في حسن هذه الضيافة وهل أعجبتك ألوان الطعام»؟ فأجابه كيف لا تعجبني وكل ما يوضع على موائد الملوك طيب لذيذ»؟.

فإذا أمكن الإنسان أن يصل إلى هذه الدرجة من مصارعة الغضب، والتغلب عليه من طريق السفالة والجبانة، أفليس في إمكانه بالأولوية أن يبلغها من طريق العقل والفضل؟

ونعوذ بالله من الغضب مع المقدرة، وإطلاق اليد بقوة اليأس، فإنه لا يقف عند حد، بل يتدفق كالسيل الجارف، وينقض كالشهاب الثاقب، من شناعة الظلم، وفظاعة البغي،

كما رأيت في هاتين الحادثتين. ومع ذلك فقد وجدنا في مثل هؤلاء الجبابرة العتاة من ملك نفسه عند الغضب، ولم يجعل له سلطاناً عليه، مع ماله من حرية التصرف المطلق في النفوس والأرواح. يروى عن أحدهم أنه سمع اثنين من حراسه يذمانه ويهجوانه من وراء خيمته فرفع الستار عنه وقال لهما: «إبعدا قليلاً فقد يجوز أن يسمع الملك كلامكما» والأمثلة في هذا الباب كثيرة. فإذا كان مثل هذا الملك يعالج نفسه من الغضب بهذه الكيفية مع قدرته على التشفي والانتقام، بلا ضرر يخشاه، ولا أذى يهابه، فكيف لا ينتزع أي إنسان غضبه من صدره ومن ورائه الأضرار البليغة والعواقب المكروهة؟

ومن دواء النفس لتطهيرها من الغضب، حسن الاكتفاء في المعيشة والرضا بالحالة التي أنت فيها، فلا تشغل قلبك هما بما ليس في يدك، ولا تكن كالسواد الأعظم من الناس لا يلتفتون إلى التمتع بما هم فيه من نعمة بل ينسونها ويذهلون عنها، بالتطلع إلى ما في يد الغير، فلا هم يحمدون ما لديهم، ولا هم ببالغي ما في أيدي الناس، فتنقلب النعمة عليهم نقمة، ويقضون حياتهم في هم ونكد، وشقاء وحسد.

واتعب خلق الله من بات حاسداً

لمن بات في نعمائه يتقلب

وقلّ أن نرى من يرضى بقسمته مهما عظم شأنها، إذا نظر إلى قسمة أخيه مهما صغر قدرها، فتجد صاحب المنصب الذي يحسده عليه الحاسد، كئيباً حزيناً لا هو راض عن نفسه، ولا هو راض بمنصبه، بل لا يفتأ يشكو سوء الحظ وسواد البخت، ما دام يرى فوقه من هو أعلى منه منصباً، ولو كان فرداً واحداً، ولا يلتفت لحظة إلى من دونه من الذين اعتلى عليهم بمنصبه ولو كانوا الوفاً. وتلك شيمة سيئة من شيم الإنسان يشقى بها طول حياته، إذ لا يحمد أبداً على الكثير الذي يناله بل يغضب للقليل الذي يحرم منه. فإذا وليته وكيلاً، لم يزل في وظيفته حزيناً، حسيراً، حتى يصير مديراً، فإذا صار مديراً لم يتجاوز سروره بوظيفته الجديدة. أكثر من مسافة التهنئة بها، ثم ينقلب إلى عادته، ساخطاً شاكياً حتى يصير وزيراً، لا يزال هكذا يتدرج من تطلع إلى تطلع، وينتقل من أمل إلى أمل، فيصبح مقسم العيش بين حزنين حزنه من بقائه في المنصب الذي يسعى في خلعه عنه خلع النعل، وحزنه من بقاء من هو فوقه في المنصب واستبطائه في خلعه منه، لا يزال هكذا حتى تنقضي حياته ولما تنقض مآربه.

واعلم بعد ذلك أن الشره في جمع المال هو أس البلاء، وداعية الشقاء في هذا العالم، وهو السبب الأكبر في الكوارث

والنوازل التي تنزل بالإنسان في حياته. وكل ما تراه من خصام بين الأقارب، ونزاع بين الأصدقاء، وخداع بين الأخوان، وشقاق بين الجيران، وخصام في المحاكم، ولو أحصيت ما يقع في هذا العالم من الجنايات لوجدتها كلها صادرة عن حب المال، فالولد يقتل أباه، والمرأة تسم زوجها، والأخ يؤذي أخاه، والأم تشنأ ولدها، والعشيرة تفتك بالعشيرة، والقبيلة تنازل القبيلة، والأمة تهاجم الأمة، كلهم فريسة بين شواجر الأسنة وقواضب السيوف «كأنما بين المنون وبينهم أرحام» ليشتروا ذاك الذهب الأصفر بذلك الدم الأحمر، وإذا تأملت قليلاً فيما وقع من الحروب والخطوب بسبب الطمع في المال علمت أنه لا يكاد يوجد بين أيدي الناس دينار رنان لم يلوث بقطرة من دم الإنسان، وتعسا لهذا الإنسان وبؤسا، فهو لا يرضى بعيش، ولا يقنع بمال، فتراه يقدم بمهجته على الأسد في عرينه، وعلى البحر في هياجه، وعلى المدفع في قذفه، طالباً للمال لينال به الجاه، وطالباً للجاه لينال به المال، ولا يزال في هذه الدائرة الفاسدة حتى يصرعه الموت في شقائه وبلائه، وهو لاه عنه، كأنما يتوهم في الحياة الخلود. وكان الأصوب أن نقضي هذه الأيام المعدودة التي نعيشها في الدنيا براحة وسلام متمتعين بما وهبه الله لنا من الطيبات، لا أن نطمع ونتطلع إلى ما فيه غيرنا من فضول العيش، وكماليات الحياة، ولو تحققنا من

أمرهم لوجدنا أن ما لديهم مما يبهر النظر في الظاهر، لا يساوي ما هم فيه من الهم والغم بطلب الازدياد في الباطن، ولم ترض أن تتبدل حالك بحالهم، ولا ما أنت فيه من الرضا والاكتفاء بما هم فيه من السخط والغضب.

ولقد يتوهم بعض الناس أن من الغضب ما يدل على الشهامة والأنفة وعظم النفس، وليس الأمر على ما يتوهمون، لأن تأثر النفس بإساءة المسيء يحط من قيمتها، وينزل بقدرها عن قدر المسيء. والنفس العظيمة التي تعرف قدرها وتدرك كرامتها، لا تتأثر من الإساءة ولا تكاد تحسها فالانتقام مفقود لديها. لأن ما لا يحس لا ينتقم له. والنفس العظيمة تشبه الصخرة الصماء لا يؤثر فيها ما ترميها به من الحصباء، وكالمجن يرد السهم مكسوراً، والسيف مفلولاً. والحوادث وإن هي عظمت، لا تحرك النفوس العظيمة، لأنها فوق الحوادث والخطوب، فما أبعدها عن ملامستها، وأنآها عن تأثيرها. وما يتأثر إلا النفوس الضعيفة. والضعف في النفس كالجرح في الجسم إذا مسها أقل شيء تألمت له فهي أخت السامري تقول لكل شيء «لا مساس» ولطالما تأثرت بالعطش والجوع فأخذتها الحدة، وتولاها الغضب، ومن ذلك ما تراه على وجوه الصائمين في شهر رمضان من التقطيب والعبوس، وسرعة الانفعال، وربما تصنعوا ذلك فنهروا أصحابهم،

وشتموا أولادهم وضربوا خدمهم، ليعتقد الناس أنهم صائمون وهم يعتذرون لأنفسهم، والناس يعتذرون لهم بالصيام. فأفسدوا شرف العبادات بأقبح العبادات بأقبح الرذائل، وقلبوا أعمال العبد عند الله إلى أحب الوسائل عند الشيطان في إلقاء العداوة والبغضاء بين عباد الله، وهم ينامون نهارهم، ويسهرون ليلهم، ويسمرون فيه بأكل لحوم الناس بعد إفطارهم بلحوم الحيوان، ويؤذون الناس بحمقهم وغضبهم، ثم يزعمون أنهم أدوا واجباً، وقاموا بفرض، ولا يعلمون أن الصيام مفروض لتسكين النفوس، وقمع الشهوات، وصفاء الأرواح ورقة القلوب. ومما يجري هذا المجرى أن الناس إذا رأوا رجلاً من ذوي البيوتات قد احتد وغضب، وشتم وسب، اعتذروا له لأنه من الأشراف. أهل البيت النبوي، لحدة في طباعهم فيحطون بذلك من قدر أولاد النبي بنسبتهم إلى الحماقة، وليس فوق هذا جهل، لأن الله لم يخلق أحداً أحلم من رسوله عليه السلام وأولاده بضعة منه، وقد تحمل من قريش ما لم يتحمله بشر، فكم فعلوا به الأفاعيل، ووضعوا على عنقه الشريف وهو يصلى جلد الشاة وفرثها، فلم يغضب بل قابل ذلك بالدعاء لهم أن يهديهم الله، وكسروا رباعيته فلم يغضب بل صار يأخذ الدم بيده ويرمي به في الهواء وهو يدعو لهم خوفاً عليهم أن يستأصلهم الله. وكانوا كل يوم يقابلونه بإهانة جديدة وإساءة بليغة. فكان يقابلهم بالحلم

والعفو، ويستغفر لهم مع ما هم عليه حتى عاتبه الله بقوله ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ (التوبة: ٨٠) وعفا عن قاتل عمه حمزة رضي الله عنه وقد كان النضر بن الحارث من أشد المشركين عداوة للنبي، فأمر عليه السلام بقتله حيث لم يقبل الإسلام فرثته أخته بقافية خاطبت النبي فيها بقولها:

أمحمد ولأنت ضنء نجيبة
في قومها، والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما
منّ الفتى وهو المغيظ المحنق

فقال عليه الصلاة والسلام «لو سمعت قولها قبل قتله ما قتلته. فكيف ينسب الجهلاء لبضعته الطاهرة شيم الغضب والحمق وحدة الطبع؟ اللهم إن هذا لبهتان عظيم.

ومن الناس من يغضب في بيته على خدمة إذا رأى إناء وضع في غير محله، أو عثر على شيء من الغبار فوق بساطه الذي أباح لزائريه أن يطأوه بنعال وطئت الأزقة الممطورة، أو ينزعج من مواء هر، أو هرير كلب، أو صياح ديك، أو من ضوضاء الخدم فيما بينهم فيهب فيهم بالسب والشتم ويهم بالصفع واللكم كأنه يريد أن يكون بيته في سكون كالصحراء لا أنيس بها. وقد كان الخليفة المأمون يتجاوز لخدمة عن

تقصيرهم وعبثهم حتى جرأهم بحلمه عليهم فقد نادى الخدم مرة وكرر النداء فدخل عليه أحدهم وهو يقول له «ألا يأكل الخادم ولا يشرب ولا يصلى» فلم يغضب عليه ولهذا قيل في مثل ذلك إذا حسنت أخلاق السيد ساءت أخلاق خادمه، مع أن هذا الذي تؤذيه أقل حركة في بيته، ويؤلمه أقل انحراف في أوضاع أثاثه، فإنه يسمع في الطريق من الضوضاء واللغو وفحش القول أشنع ما يكون، ويرى في سيره من الأوحال والأوساخ وكل ما يؤلم النظر فلا يتأذى ولا يغضب، بل يمر بذلك كله مر الكريم، ويتحمله تحمل الحليم، أفما يكون له بعد ذلك بعض هذا الحلم في بيته فيصلح ما أعوج فيه باللطف دون العنف؟ ولكن الإنسان يريد أن يتذوق طعم الحكم المطلق في بيته، وإن كان عبداً ذليلاً في بيوت حكامه وأمرائه، وإذا لم يكن للنفس رادع منها تمادت بصاحبها في ضروب الظلم والغشم. وقد كان بعض الحكماء إذا اضطجع في فراش نومه أخذ يحاسب نفسه عما فعله في نهاره، ثم يقيم من عقله قاضياً عادلاً للحكم عليها فيما فرط منها في نهارها. ولا ريب أن شيطان الغضب يذهب عنه إذا علم أن أعماله ستعرض كل ليلة على قاض يقضي عليه بالعقاب، وأي نومة لذيذة ليس فيها حلم إذا أغمض الإنسان جفنه بعد أن تحقق في نفسه أنه قضى نهاره بالصفح والعفو وإسداء المعروف، وإغاثة الملهوف؟

وجملة القول في جميع ما قدمناه أن العمر الذي وهبه لنا الباري سبحانه وتعالى وهو أنفس موهوب، وأحب محبوب، طويل بالتدبير، قصير بالتبذير، وكلنا وإن اختلفنا في جل الأمور قد اتفقنا على التبذير والإسراف في هذا الموهوب النفيس، ولا إسراف الوارث السفيه في مال أبيه لا يعرف لكثيره قيمة وقت السعة عرفانه إياها وقت الضيق، كذلك إذا حانت ساعة الأجل عرفنا قيمة ساعات العمر، معرفة الوارث السفيه قيمة الدينار الأخير من ماله، ويود كل واحد منا لو يفتدى ساعة يطول بها عمره بكل ما ملك واقتنى في حياته، وما حصل عليه من جاه ومال، وما أمض ما يتذكره حينئذ، كيف أنه أضاع الجانب الأعظم من ساعات عمره، وقضى معظم أيامه في غضب وحقد وكراهة وانتقام، ونزاع وخلاف وخصام وشقاق فكم أضاع أوقاتاً نفيسة فيما لا يفيد من الغضب، وغفل فيها عن التمتع والتلذذ، تلك الأوقات المزدانة بالصحة والعافية والغنى والشباب، وفي السنة الشريفة «الدنيا كسوق قام ثم انفض» فأي الرجلين يوصف بالعقل والحزم؟ رجل دخل هذا السوق فقضى وقته في الاطلاع على محاسنه وبدائعه ثم أخذ منه ما اشتهى وخرج منه مملوء الوطاب من أطايبه. أم رجل دخله في الخصام والنزاع، والضراب والصراع، فيخرج منه خالي اليد من المتاع، مرضض الجسم ممزق الثياب، يا عجبا خلق الإنسان للذهاب

والفناء ولكنه يصف حقده بالخلود والبقاء، ويقضي عمره في أحكام عقدة العداوة بين زيد وعمرو، وهو لا يدري أن الموت يقطعها في لحظة قطع «الإسكندر» عقدة «جورديان».

وإن الإنسان يغضب ويحقد ويكيد ويدبر والقضاء يعد ساعات الأجل فوق رأسه ساعة أثر أخرى وهو لاه عنه حتى يختطفه الموت قبل من يكيد له ويعاديه، فلم لا يعيش الإنسان إذاً خلواً من العداوات فيكون مستريح البال ساكن النفس محبوباً في حياته، مأسوفاً عليه بعد مماته، وما بالنا نضرب بعضنا بعضا، ونؤذي بعضنا بعضا، ونحن مصفدون جميعاً في سلسلة أطرافها في يد القضاء والفناء وهلا يشير العقل أن نقضي ساعات هذا الأجل القصير في الهناء لا الشقاء؟

بقي علينا أن نذكر القارىء بعد الذي عرضناه عليه مما يقال عن رذيلة الغضب إجمالاً وتفصيلاً، إن الغرض الأول هو أن نقيم له البرهان على أن الغضب ليس بالأمر الطبعي في النفوس البشرية، لأن ما هو طبعي لا بد أن يبقى على الزمن، والغضب يمحوه مرور الزمن عليه، فهو ليس بطبعي، وما لم يكن بطبعي ففي قدرة الإنسان التغلب عليه، وما يمحوه الزمن بمروره يمحوه العقل بنور برهانه، والغضب إذا ابتدأ في النفس ولم يتداركه الإنسان بفضل عقله اشتعل اشتعال الحريق، واندفع اندفاع السيل، واخترق النفس اختراق

الصاعقة للمادة، فلا تتوهمن أنك تضع له حده أو تقتصر منه على مقدار، نعم إن الوصول إلى محو الغضب من النفس أمر صعب المنال، وإنما الغرض الذي نرمي إليه هو أن نعتقد أن الغضب ليس له حد يقف الواقف عنده، وإنك تستطيع بطول الممارسة والتفكير أن تتغلب عليه، والرجاء فيك أيها القارىء الكريم، إن أردت تطهير أخلاقك من رذيلة الغضب، أن تقرأ ما جمعناه لك في هذا الباب بتدبر وإمعان، وتعاود قراءته المرة بعد الأخرى حتى يكون بعض الشيء منه حاضراً في ذاكرتك، فيردك بإذن الله عن الاندفاع في سورة الغضب، إذا رأيت ما لا يرضيك، وقد جربت ذلك في نفسي، فكلما همت وهي الأمارة بالسوء، أن تغضب لشيء مما يغضب له الناس، ذكرتها ما جمعته من البراهين على رذيلة الغضب، وأنه لا يليق بالذي يسطرها ويشرحها أن يستفزه الغضب، ثم أشبعتها تبكيتا وتأنيبا، فتنصرف عنه المرة بعد الأخرى، كما أنني جربت ذلك في غيري أيضاً: فإن لي صاحبا ترضيك طباعه من المروءة والفتوة، إلا أنه حاد المزاج، سريع الغضب، وأكثر ما يعتاده ذلك، إذا رأى تقصيراً من الخدم في مجلسه، أو على مائدته، فيسب ويلعن ويحتقن ويضطرم، فقلت له يوماً في ساعة صفاء أنني أكتب في الغضب فهل ترغب في أن أقرأ لك شيئاً منه؟ جئته بالصحيفة التي عددت فيها ما يلتمس للخدم من الأعذار في تقصيرهم فتأمل ذلك

قليلاً، ثم استحسنه كثيراً، وصرت كلما هم بالغضب على خادمه، أذكره الصحيفة ممازحا، فيرتد في الحال عما كان يجري على لسانه، في حدة غضبه، حتى انتهى هو نفسه عندما يحس من نفسه الغضب أن يقول لي ممازحاً، ناولني الصحيفة، فينقلب الغضب ضحكاً والعبوس بشرا.

ونقول في مختتم الكلام أن غرضنا كله، هو أن ينتفع القارىء بتدريب نفسه على حسب ما بيناه في هذه الرسالة لا أن يمر عليها مروره على باقي الرسائل والمقالات، فلا يتذكر ما فيها، بعد ما يطويها، بل يعتبرها مثل تذكرة الطبيب التي دونت فيها صنوف العلاج وتركيبه ليستعمله بعد تركيبه وإعداده.

والله الموفق والمستعان، على ما فيه شفاء الأرواح والأبدان.

ساعات الحياة

إن العمر طويل بالتدبير، قصير بالتبذير، كما أشرنا إليه في آخر كلامنا عن «الغضب» وإن الإنسان يشتغل في حياته أكثر ما يكون بسفاسف الأمور التي تجره إلى الغضب، فيجره الغضب إلى مضايق الأكدار، ومنغصات الحياة، فيضيع من عمره أكثره في الشقاء والبلاء، وكان يجب عليه أن يقصره كله على ما ينفعه، لا أن يقضيه فيما يضره ويشقيه. وهو يعرف بالطبع أن زخارف الدنيا، وبدائعها، وذخائرها، ورغائبها، لا تساوي في ميزان عقله دقيقة واحدة من عمره. بل إن جميع ما يحتوي عليه هذا العالم من شموسه، وكواكبه، أقل قيمة عنده من تلك الدقائق التي يصرف الآلاف منها في الأسف، والأسى والحزن، والندم، إذا لم يبلغ ما أراد من سافل مشتهياته، ولكنه لا يحس هذه المعرفة، إلا إذا حم القضاء، وقرب الأجل من الانتهاء، فيتمنى أن لو أنفق ما في الأرض جميعاً لزيادة تلك الدقيقة في عمره. وكان يجب عليه أن يتذكر ذلك، والزمن في ملكه وتصرفاته، ينتفع به في وجوه المنافع، لا أن يتذكره عند ضياع الفرصة، حيث لا

يجدي التمني والترجي، وحيث يرى «لو» و «ليت» حرفين يجرانه إلى الندم والأسف، ويؤكدان له الهلاك والتلف، وينسب البخل إلى الطبيعة ظلماً لأنها لم تهبه عمراً طويلاً يليق بشرف أعماله من بين سائر الحيوان، وشكوانا جميعاً من الطبيعة، ووصمنا لها بالبخل، لقصر أعمارنا وسرعة نفادها بإدراك الموت لنا عندما نستعد للحياة، داء قديم استوى فيه العاقل منا والجاهل، وهذا رئيس الطب «أبقراط» يقول: «الحياة قصيرة والفن طويل» وجاء من بعده رئيس الحكماء «أرسطو» يشكو من الطبيعة لتفضيلها بعض الحيوان على الإنسان بطول العمر، كالحوت، والفيل، والغراب، والببغاء، فإنها تعيش قروناً، والإنسان الذي هو سيدها ومولاها، وقدره في الدنيا أعظم، ومقامه فيها أكرم، وسعيه عليها أعلى، وقيمته فيها أغلى، لا يكاد يبلغ القرن إلا نادراً، والحقيقة أن نصيبنا ومقسومنا من الزمن ليس بقليل، وإنما إسرافنا فيه جعله موصوفاً عندنا بالقلة، والحياة في الواقع طويلة تكفي للقيام بالأعمال العظيمة، لو استعمل الإنسان أوقاته فيما ينبغي على ما ينبغي، أما إذا أضاعها في الملاذّ والشهوات، والكسل عن العمل، أو في النزاع، والخصام، والصراع، والضراب، دون النافع من الأمور فستأتيه الساعة الخيرة على عجل فإذا الحياة التي لم يحس سيرها قد أحس مضيها.

وإذا كانت الطبيعة لم تهبنا حياة طويلة فالواجب علينا ألا نعمل على تقليلها وتقصيرها. ولا يجوز أن نشتكي من قلة أيام العمر، بل نلوم أنفسنا على تضييعها عبثاً والتفريط فيها، وحياتنا واسعة لمن يحسن التصرف فيها، كالثروة في يد الحازم المقتصد يستثمرها وينميها، لا كالثروة في يد الوارث السفيه يبذرها ويسفيها، ومع ذلك فإنك تجد الناس كأنهم أجماع على السفه والتبذير فيها، فترى الواحد منهم يقضيها في جمع المال وأدخاره فينتظم عقود الآلاف في خزائنه، وينثر عقود السنين من عمره، فيبتغيه الأجل، وقد انتظم له ما ينتفع به غيره من ورائه، وانتثر منه ما ينتفع به من أيام حياته، وترى الثاني يصرف أوقاته في التهلي بالملاذ والشهوات في غفلة مسترسلة، فتحل ببدنه الأمراض والسقام، ويوقظه الأجل كأنه كان في حلم أو منام، وتجد الثالث يتطلع إلى ما في يد الغير، ويطمع في أشياء كثيرة ليس أمرها بيده، فتذهب حياته ضياعاً في الكدر والشقاء، وتجد الرابع يستظل بظلال الكسل والراحة، فيذهب عمره سدى، وتشاهد الخامس يخاطر بنفسه، ويلقي بها في المهالك لربح يربحه وهو غني عنه فيموت ذاهلاً بين المخاوف والمتاعب، وترى السادس مشغوف الفؤاد بحب المعارك والوقائع فلا ينتهي عمره إلى بالوقوع في التهلكة أو إيقاع الغير فيها، وتبصر السابع يتهالك ويتفانى في خدمة من لم يستحق الخدمة، ولا يعترف له

بجميلها، ثم تجد القسم الأعظم من الناس يحسدون غيرهم على أرزاقهم وأقسامهم، فيقضون حياتهم في الشكوى من القضاء والقدر. وآخرين ليس لهم مقصد معروف، ولا مسلك مألوف، ولا غرض معين، ولا سبيل بيّن، فهم يسيرون مع كل ريح، ويندفعون. مع كل تيار، وينتقلون من عمل إلى عمل، بدون تمامه ولا اجتناء فائدة منه. وغيرهم تراهم حيارى بأنفسهم يقضون الحياة بين التردد والتذبذب، وفتور الهمم وانحلال العزائم.

وقصارى القول أننا لا نحيا إلا جزأ يسيراً من أعمارنا، وما بقي منها لا يسمى حياة وإنما هو وقت يمضي وأيام تمر، وقد أحاطت بنا الأهواء والرذائل من كل جانب. فلا تترك لنا وقتاً نتمكّن فيه من اتجاه أنظارنا نحو الحقائق والانتفاع بها وإن كان لنا فترة بين عواصف تلك الأهواء والشهوات. فإنما نقضيها فيما تخلفه لنا من الجمود في النفس، والخبل في الجسم، كما يقضي راكب السفينة وقته بعد اضطراب البحر من الأعاصير والزوابع.

ولا تظننّ أن تضييع العمر والتبذير فيه من شأن العامة من الناس وحدهم بمشاغلهم المختلفة، وضروراتهم المنوّعة، وحاجاتهم المعددة وجهلهم بالحكمة العالية، بل تضييعه والإسراف فيه من الخاصة والأشراف وعلية القوم أكثر وأعم،

وإذا تأملت في أحوال هؤلاء الذين يعدهم الناس بينهم أغنياء، أقوياء، أعلياء، سعداء، لوجدت أعمارهم أعظم تضييعاً، وأبلغ تبذيراً، لاتساع دائرة أشغالهم، وانفراج زاوية أفكارهم وأوهامهم، ولحسبتهم كأن بهم مساً من الشيطان وهم مقبلون مدبرون في هيجاء من التحاسد، والتباغض، والمباهاة، والمباراة، يهجمون على غيرهم، تارة، ويدفعون عن أنفسهم أخرى، فهم أبعد عن السعادة بعدهم عن الحكمة.

وإذا أنت رجعت إلى نفسك، وجمعت ما تشتت من أفكارك، ونظرت نظرة الحكيم إلى أوقات حياتك، رأيتها أما مسلوبة منهوبة منك، أو ضائعة تحت طيات الغفلة، أو متروكة بإهمالك، وأسوأها حالاً، وأكبرها معرة، ما ذهب منها بطريق الإهمال، وعلى ذلك فكل العمر ينقضي فيما لا ينبغي، ومن ذاك الذي يعرف قيمة الزمن، ويقدر الحياة قدرها، ويعلم أن كل لحظة هي جزء من فنائه، وأن أنفاس المرء خطاه إلى أجله، والخطأ كل الخطأ، أن نظن الموت أمامنا، وقد مضت أجزاؤه من ورائنا لأن ما يذهب بالانقضاء من العمر هو في الحقيقة الموت بذاته، فإذا أدركنا ذلك وتنبهنا إليها قبضنا على أوقاتنا قبض البخيل على دراهمه. وأنفقنا منها ويدنا ترتعش كما ترتعش يد الشحيح عند الإنفاق، ولئن كان البخل بالمال رذيلة، فالبخل بالعمر

فضيلة. فإذا فعلنا ذلك كانت أوقاتنا حاضرة لدينا بملكنا، وانحل عنا ارتباطنا بالمستقبل المجهول، وعشنا في حقيقة ما نملك في الحاضر، لا في وهم ما لا نملك من المستقبل، وكانت ساعاتنا الحاضرة خيراً من سنتنا الآجلة. واعلم أن كل ما في هذا العالم مما تظنه ملكاً لك، هو خارج عن قبضتك إلا الزمن، فإنه الملك الصحيح الذي وضعته الطبيعة في أيدينا وأغرب كل غريب في أعمال الإنسان أنه يحرص على الأشياء التافهة التي يقدر على تعويضها إذا فقدها، ويقوم بشكر من يحتفظ له بها، ولا يعتني بالزمن الذي لا يعوّضه شيء في الدنيا، بل ربما شكر من أضاعه معه، ثم نراه كالأسد يكاد يفترس من تعدى على بعض ما يملكه، ونراه يرضى عمن تعدى على أوقاته بالسلب، ولو سلبه سالب ساعة من معدن الحديد لم يرض عن القضاة إلا إذا حكموا عليه بالحبس والتنكيل. لكن إذا سلبه سالب ساعة من معدن الزمن ضاعف له العطاء، وأجزل الإحسان، وزاد له في الحمد والشكران، وطلب منه العودة إلى مثل هذا الخسران.

ولن تجد إنساناً يقدر أن يقول لك إنه استعمل جميع أوقاته فيما ينبغي وأنه لم يخسر في حياته وقتاً ما، وأحزم الناس من يدرك أنه يخسر من أوقاته لأن السواد العظم منهم يخسرون أوقاتهم. ويدركون أنهم يخسرونها. ولا يحسون

هذه الخسارة، إلا في وقت الحاجة إليها عند دنو الأجل. وهناك يعرف الإنسان قيمة الزمن الذي طالما طلب من صاحبه ونديمه وقت الصفاء أن يصرفه معه في اللهو، واللعب، أو يقتله معه، على ما في تعبيرهم، وهو في الحقيقة إنما يقتل نفسه.

ولو أنك سألت رجلاً بلغ أقصى العمر أن يعرض عليك حساب أيامه بالتفصيل، لما أضاعه في النوم، وما أضاعه في حاجات بدنه، وما أضاعه في لبس ثيابه، وما أضاعه في القضايا والدعاوى، وما أضاعه في الانتظار، وما أضاعه في خيالات الحب وأوهام العشق، وما أضاعه في المرض، وما أضاعه في النرد والشطرنج وورق القمار، وما أضاعه في التفكير والتدبير لدس الدسائس، وما أضاعه في الحزن والكدر، وما أضاعه مع الثقلاء، وتكلّف المحادثة مع الجلساء ـ لوجدته لم يعش شهراً واحداً من ذلك العمر الطويل لنفسه، فإن الناس قد أجمعوا على نسيان الموت، فبنوا أمورهم على الخلود، فهم ينفقون أوقاتهم بغير حساب. وليس يخطر على أفكارهم سرعة مرور العمر، وقرب نفاده، إلا إذا اختطفت المنون على مقربة منهم قريباً من أقاربهم، أو صديقاً من أصدقائهم، هنالك يتنبهون لأنفسهم بعض التنبه، ويتذكرون بعض الذكرى، ويعلمون أن الموت حق، ومع ذلك تراهم

يتحمّلون الأعذار في أسباب الموت، ويتساءلون عن الداء الذي عقبه الموت، ليطمئنوا أن الموت إنما حل بسبب داء عضال لخلوهم منه، كأن الموت لا سبيل له على ابن آدم إلا من هذا الطريق، ثم لا تلبث هذه الذكرى فيهم أن تزول بانهماكهم فيما هم عليه، ويذهب في تياره ذهاب الغثاء في السبيل المنحدر، ويعودوا إلى الاشتغال بأعمال المخلدين.

ولهذا تراهم يعطون غيرهم في أوقاتهم عطاء من يمتح من بئر لا تنضب، مع أن اليوم الذي يجود به الإنسان على غيره من عمره، أو يقضيه في سخيف من الأمر، قد يكون آخر غرب من ذلك القليب، فيجب علينا أن ننفق من أوقاتنا إنفاق من يعلم أنه سيموت غداً، لأنك إذا نظرت إلى تراكم المهالك، وتقاطر الأخطار علينا، من فوقنا ومن تحتنا وعن إيماننا وعن شمائلنا، والتفت إلى كتائب الأمراض والعلل التي لا تزال تدأب على الهجوم علينا، لتدمير هذا البدن الضعيف، تيّقنت أننا جماعة أسرى في سلسلة أمام السياف، يأخذ منها واحدا بعد واحد. لكنكَ إذ نظرت إلى اتساع مطالبنا التي لا ينتهي منها مطلب إلا أعقبه مطلب وإلى ما ترمى إليه إرادتنا من الغايات البعيدة، تخيلت أننا قوم كتب لهم الخلود في الدنيا فلا تؤثر فينا المخاوف، ولا تفعل فينا النوازل المنتشرة على وجه الأرض، انتشار الغبار عليها. ولا يدركنا العطب، ولا يبلى منا البدن، بل كأننا انتقلنا من سكنى الغبراء، إلى سكنى

السماء، وانتفضنا من صور الأجسام البالية إلى مجردات غير فانية، وإنما نحن في غفلة عن أيام العمر وذهول عن قدر الحياة.

ولو أن إنساناً علم أنه لم يبق له من عمره إلا ثلاثة أيام، وكان شجاع القلب كعليّ، لا يبالي أوقع على الموت أم الموت عليه وقع، لظهر لك مما يعمله في هذا الظرف اليسير من الزمن، أنه يسع كثيراً من الأعمال كمثل الذي يتأهب للسفر يقضي في قليل من الوقت كثيراً من العمل، فلو أنه استعمل أوقات عمره على هذا النسق ولم يصرفه بالباطل، لتبين له أن العمر متسع طويل.

ومما نضربه لك مثلاً في الحرص على الوقت واستعماله استعمالاً نافعاً، ذلك العالم الألماني، من أهل القرن الماضي، إذ رأى أن يستعمل مدة الانتظار التي لا يخلو منها إنسان بين جلوسه على المائدة وحضور الطعام في عمل نافع فكان يصرفها في التأليف حتى صدر عنه كتاب من أعظم الكتب قدراً ونفعاً سماه «الدقائق الخمس قبل الطعام» ولو أننا حسبنا ما يتجمع من هذه الدقائق الخمس التي نصرفها عبثاً في مدة عشرين سنة لكان خمسة وسبعين يوماً من خالص الزمن ولبابه، ولا يكاد الإنسان يحصل على مثل هذه المدة في سنة من سنيه خالصة له من الشوائب.

فانظر إلى هذا العاقل كيف قضى ما يضيعه كل إنسان من مثل هذه المدة فيما ينفعه وينفع الناس. ومن الناس من يؤجل متعته بالحياة ولذة العيش وراحة البال، أجل يقدره وعمر يسميه، فيقول إذا وصلت إلى الخمسين التفت إلى استصفاء أوقاتي لنفسي فانبذ المناصب ومعاطبها، والمراتب ومتاعبها، وأعيش في راحة وصفاء، ولذة وهناء، فيتصرف المسكين فيما لا يملك، ويحكم على ما لا يعلم، ويقضي على ما لا يدري، والقضاء واقف على رأسه يحل ما يعقد، وينقض ما يبرم، ويبدله التأجيل بالتعجيل.

والمرء كالحالم في المنام
يقول إني مدرك أمامي
في قابل ما فاتني في العام
والمرء يدنيه إلى الحمام
مر الليالي السود والأيام
إن الفتى يصبح للسقام
كالغرض المنصوب للسهام
أخطأ رام وأصاب رام

ومن الخطأ الفاضح، والخطل الواضح، ألا يختار الإنسان لراحة نفسه إلا الجزء الأخير والإشفاقة ما يستقي من عمره لنزهة أفكاره في فراديس هذا الملكوت، وذخائر هذه

الطبيعة، وبدائع كنوزها، وجمال صنعها، وتكوينها فهو يهبها أقصر وقت من عمره، فكأنه يريد أن يدخل في ابان الخروج منها. ولقد أنطقتَ متاعب العلاء ومشاق المناصب، أعاظم الملوك والقياصرة، الذين يحكم لهم بالسعد وطيب العيش في هياكل العظمة والجبروت، بكلمات، لو علم البائس الفقير بما وراءها من الهموم والغموم لاستصغر ما استعظم من أمرهم، ولأيقن أنه هو المتنعم المغبوط دونهم، فمن ذلك أن ملكاً من أكبر الملوك قدراً، كان يلهج دائماً في كثير من كلامه بقوله: «متى أعيش لنفسي يوماً واحداً من أيامي» وكانت كل أمنيته أن يخلو من مشاغله لينال هذه البغية، فلما علم أن لا سبيل إليها، كتب إلى كبراء دولته يقول لهم «لا أزال أتطلع إلى التفرغ من الأعمال لأعيش لنفسي لا لغيري، ما بقي من عمري، ولكن علمت أنني لا أطيق ذلك الآن فسلمت لحكم الضرورة، وهأنذا باقٍ في المشاغل والمتاعب، لا لذة لي في الحياة إلا الأمل في الوصول إلى غرضي الذي أتطلع إليه يوماً من الأيام» وآخر مثله كان يقول: «أنا الرجل الوحيد الذي لم ينل إجازة يخلو بها من مشاغله، وهو الذي يعطي الإجازات لغيره.

واعلم أن الحاكم والوزير إذا جلس في دسته، واستقل بمنصبه، فقد نسي أو كأنه مات فلا يبعث إلا وقت الفراغ من

عمله. ومنهم من يصل نسيانه لنفسه إلى ما بعد ذلك أيضاً، فقد حدث أن اللورد «بيكمسفيلد» وزير إنكلترا تقدم ليركب مركبته مع زوجته. فلما دخلت المركبة بعده وأقفلت بابها أصابها في أصبع من أصابعها فلم تتقزز لذلك الأم الشديد وكتمته وضبطت نفسها مخافة أن يظهر عليها علامة من علامات التوجع في مسافة الطريق حتى أوصلت زوجها إلى وزارة الخارجية وعادت فاستدعت الطبيب، فلما رجع زوجها وجد الطبيب مع أهلها بجانبها وعلم بما جرى، فأخذ يعتب عليها في تحملها للألم وكتمانها الأمر عنه فقالت خشيت أيقاظك من الاستغراق في الفكر، واشتغالك بتدبير أمور الدولة، ونوادر الاستغراق في الفكر والذهول عن الحياة وطول النسيان كثيرة مستفيضة منها ساعة «نيوتن» التي رماها في الماء المغلي بدل البيضة التي كان يريد أن يأكلها فهل كان هذا العالم العظيم عائشاً لنفسه؟ كلا وإنما أراد أن يموت في الحياة ليعيش بعد الممات.

وشبيه بهذا أحد المبذرين المسرفين في أوقاتهم، فقد كان يلعب بالنرد فأحس العطش فطلب ماء ليشربه، فلما جيء به تناول الكوبة بيده فرمى بها في النرد وابتلع الزهر من النرد الذي كان يلعب به في اليد الأخرى. فهل يستطيع هذا اللاعب أن يعد نفسه في الأحياء في ذلك الوقت الذي اختلس

النرد منه زمنه النفيس، وعوضه عنه ما ينتهي إليه اللاعبون من النزاع والصراع؟

ومما شاهدناه من نوادر الذهول أن المسيو «كارولیدس» أحد كبار العلماء المقيمين في الآستانة، اشترى يوماً من الأيام سمكاً صغيراً فلفه في غلاف من الورق ووضعه في جيبه، وذهل عنه ذهول العلماء، فكان كلما دخل على أصحاب له شموا رائحة كريهة، فقاموا يبحثون في أركان المكان فلم يروا شيئاً. ولما تكرر ذلك في بيت آخر تذكر ذلك السمك فأخرجه من جيبه منتناً: فضحك الحاضرون واشتهرت عنه تلك الحكاية في الآستانة.

وكان أحد السفراء يمشي في شوارع الآستانة في يوم مطير، وعلى رأسه مظلة تقيه المطر، فذهل عنها وعن وقايتها له، ووقف بباب حانوت ليشتري مظلة، وعندما أراد أن يضع يده في جيبه ليدفع ثمنها، أدرك أن المظلة الأخرى في يده وعلى رأسه.

ومن ذلك الحكاية المشهورة بين المصريين التي يروونها عن أحد الأجانب من قضاة المحكمة المختلطة بالمنصورة، وهي أنه دعا جماعة من إخوانه لتناول طعام الغداء عنده في الغد، وذهل أن يخبر بذلك طاهيه. فلما حل الميعاد، وحضروا، ولم يجدوا عنده ما يأكلونه، فاعتذر لهم بذهوله. واعتزم بعد ذلك دعوتهم مرّة ثانية ليعوّض عليهم ما فاتهم.

فبدأ بالأمر لطاهيه فطبخ طعاماً كثيراً بعدتهم، ثم ذهل عن دعوة أصحابه، ولما حضر إلى البيت وجلس على المائدة، وجد أصنافاً كثيرة، فسأل الطاهي عن سبب ذلك فذكر له ما أمر به، فبهت الرجل من ذهوله.

ومثل هذا كثير مستفيض بين الناس، فهل يعدّه العاقل من الانتفاع بأوقات العمر والتمتع بالحياة؟

وقد أطبق الحكماء على أن معرفة الحياة، ووجوه الانتفاع بها علم هو أصعب درسا، وأشق تحصيلا، وابعد تناولا، من بقية العلوم، التي يجوز أن يبرع فيها من لا يزال في سن الصبا، أما علم الانتفاع بالحياة. فلا يبلغه إلا من بلغ السن العالية، ولم يتقنه أحد في هذا العالم سوى بعض الأفراد من جهابذة الفلاسفة، بعد أن نبذوا المال والجاه، ورفضوا المناصب والمراتب، واجتنبوا الملاذّ والملاهي، ليتفرغوا للاشتغال بمعرفة الحياة، والاستعداد ليوم الممات، وهما عندهم الغايتان المقصودتان من الفلسفة والحكمة، فبهما يعرف الإنسان كيف يعيش، ويعرف كذلك كيف يموت. ولهم في ذلك مذاهب متعددة، وطرق مسلوكة.

والشرط الأول في الانتفاع بالحياة، هو أن يحفظ الإنسان أوقاته من الضياع، فلا يجعل لاختلاسها من يده سبيلاً. وصاحب العمر الطويل في الحقيقةهو الذي لا يجعل أوقاته

تحت تصرف غيره، بل يجعل التصرف فيها لنفسه، ويدرك قيمتها، وما ينتفع به مما ينفع.

وإذا تأملت في أحوال الناس وأطوارهم، علمت أنهم لا ينتفعون بأوقاتهم الحاضرة، ولا يتمتعون بها، بل يحيلون التمتع بها دائماً على المستقبل، حتى إنك لترى الفاتح المنتصر يذهل عن الانتفاع بلذة الانتصار الحاضر، ويحيل على المستقبل أماني له وآمالاً، فيهمل التمتع بأعظم ثمرة حاضرة بين يديه وهي الانتصار، ولكنه يحيل على المستقبل بلوغ أمنية أخرى أعظم من انتصاره، وهي أن يستريح يوماً من الأيام، ويتمتع بالحياة وقتاً من الأوقات.

ونرى بعض أرباب المناصب والمراتب التي يعتبرون الوصول إليها من أكبر ضروب السعادة في الحياة، إذا وصلوا إليها لم يبارحهم الملل من حاضرهم، والتطلع إلى المستقبل، رجاء الوصول إلى التمتع بالحياة. وبودهم لو كانت الأيام كلها جمعاً وآحادا، ومواسم وأعيادا، يستربحون فيها من عناء المناصب، ولكن الذي يقضي حياته لنفسه، ويدبّر أوقات يومه تدبير الاقتصاد حتى كأن كل يوم ليس وراءه يوم آخر يرغب فيه، أو يرهب منه، هو الذي يذوق لذة الحياة، ورغد العيش، ويكون اليوم الذي يأتي بعد يومه عمرا جديدا قائماً بذاته تم له الانتفاع به.

وبخلاف ذلك فإن ابيضاض الشعر، وانحناء الظهر، وسقوط الأسنان، وكثرة السنين، لا تدل على أن صاحبها عاش كثيراً، وإنما تفيد أنه أقام على الأرض كثيراً.

وإذا تأمل حديد النظر في هؤلاء الذين يحسدهم الناس من أرباب المناصب والمعالي، والرتب العوالي، ممن إذا تنزّلوا ونظروا إلى الناس، نظروا إليهم بمؤخر عيونهم، وإذا منوا بالتسليم عليهم، سلموا بأطراف أناملهم، وجدهم كلهم أجراء قد أجروا أنفسهم، وقدروا لأعمالهم ثمناً يستوفونه، ولم يقدروا لأوقاتهم قيمة أو ثمناً. فتراهم يداً ملآى بالدراهم، وأخرى فارغة من الزمن، فإذا اعتراهم المرض يوماً من الأيام، أدركوا فيه قيمة الزمن، وعرفوا مقدار الحياة، فتنحط تلك الأنوف الشوامخ، على يد الطبيب لتقبيلها، عساه أن ينقذهم من مخالب الموت، ويرد عليهم بعض ذلك الزمن الذي لم يكن لديهم من قبل المرض شيئاً مذكورا، وإنهم ليودّون جميعاً لو يفتدون بما في العالم كله ساعة واحدة من الزمن، أضاعوا أمثالها وهم لا يدرون قيمتها، ولا يلتفتون إلى قدرها، فما هذا التضارب وما هذا التناقض؟ ولو انكشف عنهم الحجاب ورأوا ما بقي لهم في جريدة أعمارهم، لفزعوا أيّما فزع من قلة الباقي، ولأدركوا قيمة التدبير والتوفير في أوقاتهم التي أضاعوها سدى وأنفقوها بددا.

يجوز أن يملك الإنسان الدنيا بحذافيرها، ولا يجوز أن يملك ساعة فاتت من عمره ليردها، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٤). وترى الحياة تسيل بالإنسان من منحدر عال إلى هاوية الموت، «ومن يرد سبيل العارض الهطل»؟ وقد ذهل المسكين عن كل هذا، ونسي أن يصلح من أوقاته، وكأنه في سيرته يعمد إلى إصلاح حياته بفقد حياته، فهو يعيش في المستقبل فيفقد به الحاضر، ويهمل ما في يده ليتمتع بما في يد القضاء، وإنك لتجد عامة من تراهم كهولاً وشيوخاً قد خرجوا من الحياة ونصيبهم منها لا يزيد على نصيب الأطفال والصبيان، لإدراك الشيخوخة إياهم دفعة واحدة، بما ذهلوا عنه من التمتع بأوقاتهم. فحالهم في ذلك كحال المسافر، بينما هو يتلهى في قطع طريقه، بسماع قصة أو قراءة حكاية، إذا هو قد وصل إلى المكان الذي يقصده، وقد فاتته معرفة ما كان في طريقه، والتدرج فيه لاشتغال نظره وفكره.

ومعلوم أن الحياة تنقسم إلى ثلاثة أقسام، الماضي، والحاضر، والمستقبل، فأما الماضي فذخر ممتنع لا تصل إليه يد الحوادث، وأما الحاضر فسيال لا يكاد ينحجز، وأما المستقبل فمجهول في يد القضاء.

أما الماضي فأكثر الناس لا ينتفعون به لأن انصرافهم

بكليتهم نحو المستقبل، لم يجعل لهم مهلة للنظر فيما خلفوه وراءهم. ولو فرضنا أنهم وجدوا مهلة ذات مرة لفتهم عنها خوفهم أن يمر على فكرهم ما فرط منهم فيه مما يجدد الأسف والندم، ولا يتذكر الإنسان ماضيه إلا مجبراً لسوء تصرفه فيه وما ارتكبه من الخطأ والزلل. ولا يجلد على النظر فيه إلا من كانت أعماله الماضية موزونة بالقسطاس المستقيم، صادرة عن سلامة الحكم، وطهارة الضمير، وشرف الأخلاق، على أن هذا الماضي هو الكنز الوحيد الذي يملكه الإنسان ويدخره من عمره، فيجب عليه دوام النظر فيه للانتفاع به، سواء أكان ممتلئاً بصور الحسنات، أم مشحوناً بصور السيئات، أما صور الحسنات فيتذكرها الإنسان ليستمتع ويتلذذ مرة بعد أخرى، كصورة الأليف يحفظها الأليف عنده فيتمتع برؤيته بعد زواله. وهذه اللذة وإن كانت خيالية، إلا أنها تمتاز عن الحقيقة بأنها تامة كاملة، تقدر عليها، وتتمكن من تملكها، بخلاف حالتها وهي حقيقة في الحاضر، لما يلابسها من الآفات، والعوارض، والموانع، التي ربما حالت دون تمامها، وكمالها، وضبطها، في الملك بهجوم المستقبل عليها، وأقرب شاهد على ذلك أنك تجد الكبراء من المنعمين المترفين إذا ارتد أحدهم مرة إلى ماضيه فتذكر أكلة حقيرة أكلها في زمانه، على شهوة للطعام، أزرت لديه لذتها بما يكون أمامه من صنوف الألوان النفيسة، فلا يفتأ يتشدق بها

في مجالسه، ولو كان للمسكين من أعماله الماضية ما يدخل في الأعمال الصالحات، لكان تذكره لملاذها المعنوية، فوق ما يلقاه من لذة التذكر لتلك الأكلة المادية التي لم يبق منها إلا معناها أيضاً، وأما صور السيئات فينتفع الإنسان بالرجوع إليها للعظة بها، وليكون ما يجده من الألم عند تذكرها بمثابة عصا المؤدب تمنعه من استئناف أمثالها. وأما الحاضر فهو قصير وجيز، حتى إن بعض الحكماء الباحثين عن حقائق الأشياء، ذهبوا إلى إنكار وجوده بالكلية لأنه سائل تيار، وذاهب طيار، لا يتصل إلا ريثما ينفصل، ولقد بالغوا في ذلك حتى قالوا إنك إذا نطقت بجملة «أنا موجود الآن» فهي غير صحيحة لأن مسافة النطق بها استوفت آنا من الزمن في مضيه، وهذا الحاضر لا يقف في حركته، كما لا تقف الكواكب في حركاتها الأبدية لدوام انتقالها عن كل حيز، وإن كان يخيل لك في رؤية العين أنها ثابتة مستقرة في مكانها.

واعلم أن هذا الحاضر الذي لا تقدر أن تثبت وجوده من سرعة حركته، هو كل ما في ملك الإنسان بعد ذلك الماضي الذي شغلته المشاغل عن الرجوع إلى التعلل به. فإذا أردت أن تعلم مقدار قصر الحياة في اعتبار أولئك المشتغلين بدنياهم، علمته من طول تطلعهم إلى طول الحياة كأنهم لم يعيشوا من دهرهم يوماً واحداً، فترى الشيخ الفاني وهو باسط

كفيه إلى السماء يتضرع إلى الله أن يزيد في عمره بضع سنين، فإذا سألته عن عمره أخفى عنك جزءاً منه. فيريد أن يغشك، ويغش نفسه، ويغش القدر، ليكون عمره دائماً محلاً لقبول الزيادة، فنحن والعمر على طرفي نقيض نسعى للبقاء. وهو يسعى للفناء.

ومما يضحك في هذا الباب، أن رجلاً من كبار العلماء في الزمن الماضي، ولعله «أبو عبيدة»، مرض مرضاً شديدا، فعاده أحد أصحابه وقال له عند مفارقته «أسأل الله لك الشفاء القريب من هذه العلة» فقال له وكيف يرجى الشفاء من مثلها بعد التسعين؟ ثم مضت الأيام على ذلك وعوفي الشيخ من مرضه، فكان أول عمل له في بدء نقاهته أن سعى على قدميه حتى وصل إلى بيت ذلك العائد، وقال له أول كلامه» سألتك بالله أن تكتم على ما أفضيت إليك به من مقدار سني.

ومن هذا القبيل، لنا صاحب كبير السن، فإذا سألناه عن سنه تفلّت من السؤال بالحدة والغضب، وإذا جرّ الحديث معه إلى حساب مدة عشرتنا له وهي طويلة، أحس الحبالة المنصوبة له لما يترتب عليها من الاستدلال على مقدر السن فيفر إلى الخوض في حديث غيره.

وإننا لنرى كثيراً من الواقفين على تعريف الزمن في سرعة حركته كما عرفنا ذلك يكفون أبصارهم عن تلك

السرعة، ويقفون بأعمارهم في نقطة لا يحركهم منها مر السنين والأعوام، فإذا وقف أحدهم على الخمسين مثلاً لم يتزحزح عنها كلما سئل في كل عام. ولا نكثر عليك من هذه الأمثلة فكلنا نعرف ذلك من أنفسنا.

وترى هذا الحاضر، الذي يمر مر البرق، ويجتهد الإنسان في تمديده وتطويله، ولو في الخيال. هملاً مضاعا في أيدي الناس، تشغلهم المشاغل فيه عن التمتع به، وكأني بك تظن أنه كلما خلا الإنسان من العمل والشغل في أوقاته، ازداد تمتعاً بطيب العمر، ومن أقام على البطالة والفراغ، تملك أوقاته، وصان أيامه. كلا ـ فليس الأمر كما نظن، فإننا نعد المقيم على العطل والفراغ أعظم ذهولاً عن حاضره، وأضيع عمراً من سواه، وأشغل أوقاتاً من غيره.

وكما أنك لا تحكم على من يشتغل بخصومة من الخصومات، وواقعة من الوقائع، أنه عاش لنفسه في ذلك اليوم، الذي أفناه في ذلك الشغل، كذلك لا تحكم على ذلك الفارغ العاطل الذي يقضي يومه بين مضاربة الديوك، ومسابقة الخيول، وتزيين اللباس، وتحسين الزي، والاشتغال بعبث الحديث، ولغو القول، إنه عاش لنفسه لحظة من الزمن في يومه.

ولست بواجد فرقاً بين طبقات الناس في اشتغالهم

بالوقت الحاضر، وذهولهم عنه، بين هذا الذي يطوى يومه في اشتغال الفكر، باستخراج الذهب من النحاس، أو استخراج أعداد الجمل من الألفاظ، أو المشتغل بتصفيف آنية بيته، أو القائم على بناء قصره، وبين ذلك الذي يحاول ما لا ينال من عظائم الأمور، ومصاعب الأعمال، ابتغاء صيت يحوزه، أو مال يقتنيه، فكلنا في الذهول عن الوقت الحاضر سواء المشغول منا والفارغ، والساري والسارب، والقاعد والراكب، أما المستقبل فخارج عن يد الإنسان، خاف عنه، وهو في خفائه عنا كخفاء النكت السوداء التي استكشفها «هرشل» في قرص الشمس، وفي بعده عن ملك يدنا كبعدها عنا، ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (لقمان: ٣٤).

ولكن من سوء حظ الإنسان، ونكد عيشه، أنه ينسى الماضي، ويذهل عن الحاضر، وينصرف همه كله إلى هذا المستقبل المجهول، فيعيش في الوهم الباطل حتى تدركه منيته، فترى الواحد منا إذا اضطجع فوق فراشه، فتح لعينيه باب الخلود، فيلج في ما لا نهاية له من الآمال والأماني، وابتناء القصور والعلالي، في خياله بعد أن قضى نهاره في هدم بناء العمر. فيقتل لذة العيش الحاضر، ارتكاناً على حياة المستقبل، ويحرم نفسه التمتع باللذة القائمة، انتظاراً للذة

غائبة، فيبيع عاجلاً بآجل، وحقيقة بوهم، ولو أن مستقبل العمر كان مضموناً، ونعيم العيش فيه محققا، لكان من العبث، وأفن الرأي، أن يشتغل الإنسان بشيء قبل حدوثه، ويرمي لأجله بما في يده، من الشيء الحاضر هباء منثوراً، فما بالك والمستقبل مجهول موهوم، والعيش فيه مغيب مكنون؟ ولا يزال الإنسان هكذا هائماً في العيش الباطل، حتى يدركه الأجل الحق فيموت، وهو لم يعش بعد، ولقد ألقت الحكمة على لسان قدماء الرومانيين تعبيرهم في لغتهم عن الميت، فيقال عاش فلان، لا مات فلان. ولقد بلغ من تهالك الناس وتفانيهم في التطلع إلى المستقبل والتعلق به أن كادوا يصلون أعناقهم المشرئبة إليه بالعوالي والرماح، كما وصف المعرى حنين الإبل إلى أوطانها، عند تطلعها إلى البرق اللامع من أفقه:

إذا غاب عنها سرها لو رؤوسها
تمد إليه في رؤوس عوالى

أو كما قال أحد حكماء هذا العصر، وقد أفرط الناس في التعلق بالمستقبل حتى أشبهوا حمير ايتاليا، إذ يحتال سائق الحمار في حثه على السير بشيء من الحشيش الأخضر، يربطه في طرف عود، ويربط الطرف الآخر بين أذني الحمار ليصير متدالياً أمام عينيه، فلا يزال الحمار دائباً في الإسراع ليبلغ فاه، وما هو ببالغه.

ولقد يتجلى لك ذلك بأوضح بيان في أهل السياسة، وفي كثير من أرباب مرافق الحياة، وأخص بالذكر منهم هؤلاء المشتغلين بأعمال البورصة، فما أهون أيامهم الحاضرة لديهم حتى لقد يتمنى أحدهم أن يسقط من عمره شهر ـ سبتمبر مثلاً ـ ليأتيه شهر أكتوبر بالربح الذي قدره للأسعار في خياله؛ فيجيئه هذا الشهر المتمني بغير ما حسب وقدر، فيقع المسكين في خسارتين، خسارة عمره، وخسارة ماله، بعد أن اصفرّ وجهه اصفرار الذهب الذي يطلبه، واضطرب قلبه اضطراب أسلاك البرق التي ينتظر أخبارها. وقد روى عن «روتشيلد» ملك البورصة كما يلقبونه، أنه لا يكاد يجلس على مائدة طعامه، حتى يقوم ليكلّم سماسرته المرة بعد الأخرى، فهل تحسب هذا الطعام الذي يطعمه متقطعاً طعاماً يلذه أو يمري على جسمه؟ وقس على ذلك أولئك المنهمكين في القمار والميسر، فإنهم إن ربحوا «وقليل ما هم» شيئاً من المال، فقد اضاعوا الكثير من العمر، بعد أن أفسدوا أمزجتهم باضطراب النفس، وسهر الليل، فتنتابهم العلل والأمراض، ولا يحسون أنهم في الحياة ـ كان لي صاحب دخل عليه أهل قرابته في يوم عيد للتبريك، فوجدوه يلعب الشطرنج فلم يحل حبوته، ولم يرد لهم سلاماً لاستغراقه في اللعب، فخرجوا غضابا، واشتجرت بينهم العداوة، ولم يقبلوا عذره بهذا الاستغراق الذي كان فيه من الموتى. ومن هذا القبيل أيضاً،

أولئك المرتزقون بالمرتبات الشهرية، فإنهم يتمنون انقضاء الشهر، وبودهم لو ينامون نومة كهفية طول الشهر: ويقومون في آخره.

ومنهم الذين يتفرغون للانتظار، فإنك إذا تكلمت مع أحدهم، وهو ينتظر أمراً من الأمور التافهة، لم يفهم عنك ما تقول، لموت حواسه بالانتظار، فهؤلاء كلهم قد ماتوا في الحاضر، لتخيل الحياة في المستقبل، فإذا جاءهم المستقبل وصار حاضراً أهملوه، وتركوه وتعلقوا بمستقبل آخر، فتذهب حياتهم وما كانت حياة بل موتاً في الحقيقة.

وقد عاش الناس دهرهم بين أقصى المدنية، وأدنى الهمجية، يتطلعون إلى المستقبل، ويتلمسون علم الغيب ويسلكون لذلك طرقاً جمة، ويأخذون بأسباب شتى، فما شئت من الكهانة، والطيرة، والفأل، وضرب الحصى، وتخطيط الرمل، ومنازل النجوم، وحساب الجمل، والزايرجة، والجفر، والودع، والورق، والتنويم، والمندل، حتى بقايا القهوة في الفنجان، دع الأولياء، والمشايخ، وأصحاب الكرامات، وسدنة الأضرحة والمجاذيب والبلهاء، لا فرق بين الناس في الإيمان والتصديق بذلك فتجدهم فيه سواء ذلك الذي يدين بالقرآن، ويتمسك بالإيمان، فيحاول أن يطلع على الغيب بهذه الوسائل المختلفة، ويخالف مقالة

قرآنه، وحديث نبيه بأن علم الغيب عند الله قد استأثر به دون الخلق ودون أنبيائه، وذلك الذي يدين بالشيطان في زندقته والحاده، فينكر وجود الخالق ويعترف بالميديوم، ويكفر بعالم الغيب والشهادة. ويؤمن بعجوز البيت وشيخ السجادة.

وكلمتي إليك في الختام: **تمتع بيومك، كأنه جميع عمرك، ودع المستقبل يأتيك بما فيه والسلام.**

السّمعة والشرف

قال «شوبنهاور» الحكيم الألماني: يعلو القدر، ويرتفع الذكر، بين الناس من جهة المنصب، والرتبة، والسيرة، وشرف الفضل. ولكل هذه الصفات في اعتبار الناس ونظرهم واعتقادهم وجه صحيح ووجه باطل. فشرف المنصب هو عبارة عن إقرار الناس واعتقادهم بأن صاحب المنصب متمكن من الصفات والمزايا التي تؤهله للقيام بشؤون منصبه وتنبئ عن الكفاية والمهارة، والاتقان، المطلوبة منه لتأديته العمل بالضبط والتدقيق، وعلى قدر ما تكون دائرة المنصب واسعة، ونطاق العمل. ممتداً، يكون إجماع الناس على الإقرار لصاحبه بالامتياز فيهم بالمزايا والصفات التي جعلته أهلاً لولايته ذلك المنصب فيرتفع ذكره، ويعلو شأنه، وتخضع النفوس لاحترامه. واجتماع هذه الصفات، التي تؤهل للعمل في صاحب المنصب السياسي هي كاجتماع الصفات اللازمة في صاحب المنصب الحربي، فيكون جامعاً لصفات القوة، والشجاعة، والإقدام، ويكون مستعداً دائماً لتفدية وطنه بروحه في مواقف الدفاع عنه. هذا هو الوجه الصحيح في المنصب،

فأما إذا ارتقى المنصب، من لم يكن له بأهل، ولم يحسن القيام فيه بواجب عمله، وكان خالياً من كل مزية فيه، فمقداره بين الناس واحترامه يكون للمنصب في ذاته لا لشرف عمله فيه. فشرفه إضافي للمنصب لتجرّده عن كل صفة ومزية في العمل فإذا سقط منه سقط بين الناس ذكره وانمحى أثره ولم يترك لنفسه ما يذكر الناس به. وهذا هو الوجه الباطل في شرف المنصب. وأمّا شرف الرتبة وهي الألقاب والعلامات فليس لها في ذاتها قيمة بل قيمتها قيمة اصطلاحية بين الناس، وشأنها شأن مصطنع موضوع في مقابلة المكافأة بالمال، فهي أشبه شيء بالسفاتج و «الحوالات» يحولها معطيها على الرأي العام ليوفي صاحبها أنواع الاحترام والتبجيل. وقيمتها تزيد وتنقص على مقدار ثقة الناس بمانحها، وأبلغ تأثير لها يكون على عامّة الناس الذي لا يدركون مزايا الأشياء إلاّ بحاسة السمع والبصر لبساطة عقولهم، وضعف مداركهم، ولما كان أكثرهم لا يدركون إلاّ ما ظهر لهم، وتجلى لأعينهم، ثم لا يلبثون أن يدركهم النسيان، كان كساء الرتبة وحلية الوسام كالإعلان على صدر صاحبها، يذكرهم بوجوب الاحترام له، ويقول لهم «اعلموا أن هذا الرجل الذي ترونه ليس من أشباهكم بل علا عليكم بمزية» ولذلك كان من الواجب على معطيها أن يدقّق ويحقّق عند الإعطاء، ويحرص فيه حرص التاجر عند وضع اسمه في ذيل الكفالة، لأنّها شهادة منه

يوجب بها على الرأي العام أن يعترف بفضل صاحبها، وأن يخلي الطريق في التقدّم عليه. وهذا هو الوجه الصحيح في شرف الرتبة والعلامات فإذا نالها من لا يستحقها، زالت قيمتها وضاع قدرها، ومهما نال الرجل منهم من الألقاب وتحلّى بالعلامات، فإنّها لا تنيله من النفوس إلاّ احتراماً ظاهراً من ورائه ازدراء باطن، وكان المعطي كالبائع يضع على زجاجة الخل ورقة بأنّها زجاجة عطر، وهذا هو الوجه الباطل في شرف الرتبة.

وأمّا شرف السيرة فهو قيمة قدرنا في أفكار الناس، وحقيقة هذه القيمة حسّ المعاملة للناس، واحترام حقوقهم، واجتناب الظلم، والابتعاد عن ارتكاب الإثم في سبيل منفعتنا. وهذا الشرف معرض دائماً للزوال، ويكفي أن يصدر عن الإنسان عمل واحد يعيبه فيمحو ما تقدّم من محاسن سيرته، كأن يرتكب الإنسان جناية يستحق عليها العقاب، بشرط أن يكون الحكم عليه قائماً على منهاج العدل. وأمّا شرف الفضل الذي ينتج عنه حسن الذكر وجمال الصيت فهو ما يفضل به الإنسان أخر في نفسه وهو وشرف السيرة أخوان، إلاّ أنّهما يفترقان في أن هذا يزول ويفنى، وأن ذاك يدوم ويبقى. وفي استطاعة كل إنسان أن يتناول شرف السيرة ولكن ليس يمكن كل إنسان أن يحصل على شرف الفضل،

لأنّ الفضل في الناس قليل نادر لا يكون إلاّ مستثنى في أفرادهم، وهذا الشرف يتكوّن لصاحبه من وجهتين، ومن وجهة الآثار الأدبية، ووجهة الأعمال المادية، ولكل منهما منافع وفوائد، ومصاعب ومشاق. خاصة بها لا تفارقهما ولا تزايلهما والفرق الكلي بينهما أنّ الآثار الأدبية تبقى بنفسها على أصلها خالدة عن الدهر. وأنّ الأعمال المادية لا يبقى منها إلاّ ذكراها وحده مهما كان العمل عظيماً، وشأنه رفيعاً، ثم تتضاءل وتضمحل ويمحوها الزمن من الوجود بمروره عليها، إن لم يقيدها التاريخ فيرويها للأجيال على التحريف والتحويل كما نرى ذلك واضحاً بين أهل الفتوحات من القواد والملوك وبين أهل التأليف والتصنيف من العلماء والحكماء، ولا بقاء على الدهر مثل بقاء الصحف المكتوبة والكتب المسطورة ثم إنّه لا بد للأعمال المادية من علل وأسباب تتولّد عن ظروف الأحوال وأحكام الأزمان لا يتم تكوينها إلاّ بها فشرفها وحسن الذكر بها ليس هو عنها في ذاتها بل لما كان حولها من الظروف والحوادث التي تكسبها قيمة وتسكوها رواء وهي من جهة أخرى من الأمور العامّة التي تتناولها جميع الأفكار، وتحيط بها جميع الفهوم ولحسن الاتفاق فيها شأن كبير.

وأمّا الآثار الأدبية فلا حكم للحوادث عليها، ولا تأثير

للظروف فيها، ولا يتعلق أمرها بغير صاحبها وحده، وهي لا يعتورها نقص ولا يعتريها خلل، بل تبقى ما بقيت على حالتها الأصلية التي وضعها عليها الواضعون وإنّما الصعوبة هنا في تقديرها بين الناس حق قدرها ووضعها في المنزلة التي تستحقها. وليس يخفى أنّه كلّما كانت الآثار رفيعة جليلة في الأفكار، قلّ عدد من يحيط بها ويتأهل للحكم عليها. وقد لا يوجد في كل وقت من يكون أهلاً لتقديرها، وقد يوجد ولكنه يميل في حكمه إلى الجور وينحرف به الهوى عن الإنصاف ولكن مع ذلك لا بد أن يصل إليها حقّها فإن لم تنله في عصرها الحاضر نالته في الأعصر اللاحقة بين أهل الخلو عن الغرض من ذوي الرأي والحكم وأرباب المعرفة والفضل وبعبارة أوضح إذا هي لم تحصل على الإنصاف من أعضاء المحكمة الإبتدائية، المعاصرين لها حصلت عليه من محكمة الاستئناف التي يؤلف الزمن أعضاءها من نوابغ الأفاضل، الذين يجود بهم واحداً في إثر واحد، ويمكن لهم الحكم بفضل تلك الآثار، بعد مرور الأيام عليها وتوالي الدهر فحقّها مضمون على كل حال. فأمّا إذا وصل صاحبها إلى حسن الذكر، وعلو الصيت، ونال حقّه في حياته، فلا يكون ذلك إلاّ من باب حسن الاتفاق، ومساعدة الأقدار، وتوافق الظروف، وعلى أي حال فإنّ حسن الذكر كما يقول عنه أحد القدماء من الحكماء لا يفتر عن ملازمة الفضل، ملازمة

الظلال للأجسام، وهو مثلها في حركتها وسيرها فتارة يكون من أمامه، وتارة يكون من ورائه، فإذا سكت عنك أهل عصرك ولم ينصفوك، ولم يشهدوا لك بما أوتيته من الفضل، لما يكون بهم من الحسد والبغض، أنصفك من يأتي من بعدهم، وردّوا إليك حقّك بخلوهم من كل هوى وغرض.

وهذا القول من هذا الحكم القديم يدلّنا أيضاً على أن السعي في إنكار ما ينفع الناس من الفضل، والانتصار لما يضرّ من الجهل، داء قديم في نفوس أهل النقص والعجز من كل زمان، كما هو الحال في عصرنا الحاضر. هذا وكلّما كان شرف الفضل وحسن الذكر بطيء الانتشار كان رسوخه باقياً على الدوام كالشجرة التي تنمو قليلاً قليلاً وتتأثر جذورها فتعلو فروعها، وما يكون منه سريع الانتشار سهل الحصول فهو كالنباتات التي تزرع وتقلع في فصول العام. وأمّا القسم الباطل منه الذي لا يقوم على غير أساس فهو كالحشائش الضارّة بين الزرع تظهر وتنتشر في لمحة واحدة، ثم تصبح هشيماً تذروه الرياح، وعلى قدر ما يكون صاحب الفضل مجهولاً في عصره، غريباً في قومه، فإنّه يكون معروفاً بين سائر الأجيال الآتية، مذكوراً بين أهلها، بحسن الذكر، وجميل الثناء، وأمامنا تاريخ الفنون والآداب، يشهد لنا بأنّ أعظم ما أتى به الفضلاء والعلماء من نوادر الآثار، لم يصادف

من أهل زمانهم قبولاً، ولم ينل لديهم استحساناً، بل قابلوه بما شاءوا من الإغفال والإهمال، حتى جاء بعدهم من اتّسعت أفكارهم للإحاطة به، واهتدوا بعلو أنظارهم وحسن معرفتهم إلى تقدير قيمته، فحكموا لهم بالإحسان، وأنزلوهم في أعلى منازل الإجلال والإعظام، والسبب في ذلك أنّ الإنسان لا يمكنه أن يحيط من الأشياء إلاّ بما يناسب قريحته ويجانسها، ويكون وفق درجتها في المعلومات، فلا يناسب أرباب القرائح ذات الجمود إلاّ الأشياء الساقطة، ولا تتّسع أذهان العامّة إلاّ للأمور التافهة، ولا يوافق أهل الغباوة إلاّ حديث الخرافة، ولا يطيق الفكر القاصر العاجز أن يتصوّر ما يصدر عن الفكر الواسع الكامل، وإنّما تأخذ القرائح والفهوم، ما تتّسع له من المعارف والعلوم، والقول الصحيح لا يستوي في الفهم السقيم. ويقول الشاعر «جيلبير» في هذا الباب ما معناه: «كم رأينا من صفات حميدة وآثار مجيدة لا يحلّها الناس فيما بينهم محل الاستحسان، ولا ينظرون إليها بعين القبول، وكم اجتمعوا على نبذ الحسن وأخذ القبيح لا فرق في الزمان والمكان، فترى ذلك واقعاً في كل أمة، وفي كل موطن، وسواء فيه حديث الزمن وقديمه. فهل لهذا الداء يوماً من دواء يشفي الناس منه ويرفع البلاء عنهم؟ ما أظن أن لهم غير علاج واحد وهو أن ينقلب الأغبياء في العالم أذكياء، ويصبح الجهلاء حكماء، ولكن كيف يتيسر الانقلاب إلا

بانقلاب الخلقة، وتغيير الفطرة، وذلك غير ممكن الحدوث، فلم يبق إلا الصبر والاحتمال لأولئك الذين لا يحيطون بالأمور إلا من جهة النظر واللمس لا من جهة الفكر والعقل، وهم لصغر نفوسهم لا يزالون يفضلون كل جاهل سافل على كل عالم فاضل». وزد على ذلك أن انتشار الذكر بين الناس بفضل الرجل الفاضل يحط من قدر معاصريه، ويحط من شأنهم، فهم يسعون ما استطاعوا في كتمان فضله، وانتقاص منزلته حتى، لا تعلو على منزلتهم، ولا تغلب على شهرتهم، ولا يروق لمن كان حاصلاً منهم على شيء من حسن الذكر أن يشاركه فيه خلافه ويزاحمه فيه نده.

ومن هنا يتضح لك الفرق العظيم بين الحصول على اعتراف الناس بشرف السيرة، لأنه لسهولة طريقه، وكثرة اشتراك الناس فيه لا يكون محلاً للتحاسد والتنافر، وبين الحصول على حسن الذكر، للفضل الذي تمتاز به النفوس على سواها، لما في اعتراف الناس بعضهم لبعض بالفضل الذاتي من الغضاضة والكراهة. وكلّ إنسان منهم قادر على أن يكون له سيرة حميدة لا يحسده عليها غيره، ولكن لا يقدر كلّ إنسان أن يكون له مثل فضل الفاضل، فهو لا يصبر على اشتهار ذكره بأمر لا يستطيع أن يشاركه فيه ولا يرضى بأن يقرّ له بالمزية عليه في حال من الأحوال.

وإن كان الحصول على حسن الذكر بين الناس بفضل النفس الذاتي هو من أصعب الأمور وأبعدها منالاً إلاّ أن دوام بقائه والمحافظة على وجوده، من أيسر ما يكون، وهذا بخلاف شرف السيرة الذي يحصل عليه كلّ إنسان بأسهل طريق، ولكن يصعب بقاؤه وطول المحافظة عليه، لأنّه يزول في الحال عند ارتكاب أي معيبة، واقتراف أدنى جريمة كما ذكرنا في سابق القول، ولكن شرف الفضل لا يمكن زواله أبداً لأنّه قد تمّ وكمل بمجرد حدوث الأثر الذي ظهر من فضل صاحبه، ولو أنّه اقتصر على هذا الأثر وحده ولم يتبع الأثر بأثر مثله. فإذا رأيت لأحد الناس ذكراً شائعاً، وصيتاً ذائعاً، قد انمحى أثره من الوجود، وكان عمره قصيراً عن عمر صاحبه، فذلك هو الذكر الباطل الذي لم يستحقه صاحبه بفضل في ذاته، وإنّما ناله من جهل الناس وسوء تقديرهم لقدره، وقبح اغترارهم به. ولما كان حسن الذكر ليس هو إلاّ عبارة عن صدى للفضل وظلّه، وكانت قيمة الإحسان في نفسها خيراً من قيمة الاستحسان بين الناس، فرغبة الفاضل هنا لا تتجه لحسن الذكر الذي يتولد عن الفضل بل لذات الفضل الذي ينشأ عنه حسن الذكر، والحظ كلّه فيه سواء انتشر صداه، أو انزوى خبره، فالنفس تسعد به لذاته على كل حال، لأن أحسن الأحوال للعاقل أن يكون حسناً في نفسه، والذي يهمه فوق كل شيء حسن صورته في قلبه، لا حسن

صورته في أفكار الناس، وجمال الفضل على خلاف جمال الوجه، الذي تكون فائدته والتمتع به لأنظار الناس وحدهم دون صاحبه فإنّ فائدته والتمتع به يكون لنظر صاحبه وإن لم يشاركه بقية الناس في النظر إلى هذا الجمال فإذا فرضنا أن صاحب الفضل لم ينل بين الناس، ما يستحقه من شرف الذكر ورفعة الصيت فإنّه قد نال أهم شيء لديه وهو الفضل في ذاته.

وأما الذكر الباطل فهو الذي يقوم على غير فضل في نفس الإنسان، وحظ صاحبه منحصر فيه دون الحظ من الفضل، ولكن لا يلبث أن تنكره منه نفسه، وتسأمه لقيامه على غير أساس فيه، وربما اعتراه بالرغم عن تبجّح نفسه مثل الدوار في صعوده إلى تلك المدارج التي لم يكن أهلاً لارتقائها، أو يحدث في نفسه شك بأن ما حصل عليه من الذكر إنّما هو تمويه باطل، وأنّ نفسه في عينه تماثل النحاس المموّه بالذهب، فهو في خوف دائم، وقلق شديد، أن ينكشف الطلاء، ويزول التمويه، ويسقط إلى الدرجة التي يستحق النزول إليها.

وأمّا حسن الذكر الصحيح الذي يبقى على مدى الأجيال الآتية، فقل أن يصل رنينه إلى أذن صاحبه، ومع ذلك فإن الناس يعتبرونه سعيداً ذا حظ عظيم يحسد عليه لأنّ له في

اتساع فكره، وعلو مداركه، واشتغاله بما هو مطابق لطبيعته، من وجوه الفضيلة، وما يحلو له في نفسه من ممارسة ذلك العمل، في ذلك كله ما يجعله في نفسه سعيداً، وأساس سعادته قائم أبداً على ما احتوته نفسه من سعة الفضل والذكاء، الذي يظهر أثره من مؤلفاته، ويستجلب به استحسان أهل العصور اللاحقة، فاستحقاق حسن الذكر بالفضل، هو المكافأة التي يكتفي بها الفاضل وحدها في عمله، وأمّا نيل الرجل الفاضل لحسن الذكر من أهل عصره وزمانه، فهو شيء نادر يتعلق بظروف الأحوال، واختلاف الحوادث، لأنّ جمهور الناس لا يصلون بمداركهم إلى تقدير قيمة الفضل وإنّما يتبعون في ذلك آراء الغير من أهل الدراية، وأرباب المعرفة والحكم، فهم ينطقون بحسن الذكر له على التقليد وفي كل مائة شخص تسعة وتسعة ينطوون في ذلك على رأي شخص واحد. وحسن الذكر بين المعاصرين وانتشار الصيت فيهم ليس له إلاّ قيمة ضعيفة عند صاحب الفضل، مهما كان عددهم عظيماً. وهو لا يرى في انتشار اسمه بينهم إلاّ صدى أصوات معدودة اقتدوا بها واتبعوا أثرها، ويكون حاله في هذا الباب مثل حال المغني الذي يرى بعينه إشارات الاستحسان من الحاضرين، ثم يتحقق بعد ذلك أنّهم كانوا كلهم صم الآذان وأنّهم لم يشيروا بإشارات الاستحسان إلاّ متابعة لواحد فيهم صحيح السمع من دونهم.

وفي هذا ما يبين لنا أن أحسن الذكر الذي نراه لكثير من المعاصرين بيننا قل أن ينقلب إلى ذكر مخلد يبقى على الدهر، وقد أشار «دالامبير» إلى ذلك فيما وصف به هيكل الذكر المخلد حيث قال: «إنّ هذا الهيكل لا يسكنه إلاّ الأموات الذين لم يدخلوه في حياتهم وجماعة من الأحياء لا يلبثون أن يطردوا منه عند موتهم»، وعلى كل حال، فإنّ الرجل الفاضل، لا يدرك في حياته الوصول إلى حسن الذكر الصحيح، الذي يبقى على الأجيال إلاّ في سن شيخوخته، وعند آخر عمره، وإنّك لترى ذلك واضحاً في صور كبار الرجال وتماثيلهم التي حفظتها لنا الأجيال الماضية حيث تجدهم كلهم شيوخاً بيض المفارق وعلى الأخص تماثيل الفلاسفة والحكماء. بقي علينا أن ننظر في الطريق التي توصل إلى حسن الذكر الخالد من جهة العلوم وهو ينقسم إلى قسمين: قسم ينصرف إلى العلوم الخاصة، وقسم ينصرف إلى العلوم الشائعة ومقدار انتشار الصيت يختلف فيهما باختلاف العلوم فيكون متسعاً بسعتها، ومحدوداً بحدّها. فلو نظرنا مثلاً في عمل عالم امتاز بعمله في حل المسائل الجبرية والرياضية، فإنّ ذكره يكون محدوداً ومنحصراً في طائفته وأهل فنه، الذين يدركون وحدهم دو بقية الطوائف فضل عمله وعددهم في كل زمان عدد محدود، ودائرة حسن الذكر متصورة عليهم. أمّا إذا كان ما يشتغل به الرجل الفاضل من

العلوم أمراً شائعاً يتصل بمدارك الناس كافة مثل الاشتغال بعلم الأخلاق، والمباحث النفسانية، واختلاف الطبائع والغرائز، واستنباط الحقائق والأصول فيها، فإنّ ذكره يكون منتشراً وصيته ذائعاً على قدر اتساعها وقدر ما تفرد به من المزية في ذلك على غيره من أهل عصره، ثم يدور مع الزمن دورة الخلود والدوام. والطريق إلى ذلك ليس بسهل لأنّ مثل هذه العلوم الشائعة يكثر عدد المتناولين لها والمشتغلين بها، فالتفرد بينهم بالامتياز عليهم يحتاج إلى تعب عظيم ولا يتمكن منه إلاّ صاحب العمل النادر والفضل الباهر.

وصاحب الفضل الدائم الذي ينتهي بحسن الذكر لا بد أن يكون محسوداً بين الناس مبغضاً، والحسد على الذكاء والفضل أشدّ أنواع الحسد في ما سواه من بقية المزايا التي يتفاضل الناس بها في طبقاتهم، مثل المال، والجاه، والأحساب، والأقدار، لأنّه أعلى المزايا درجة، وأعظم الأقدار قدراً فقد قال «فردريك الأكبر»:

«إنّ مقام النفوس الممتازة بالفضل في مقام الملوك وفي ارتفاع درجتهم» قاله حين امتعض رئيس حجابه من جلوس «فولتير» ـ الكاتب الفرنسي الشهير ـ على مائدة الملوك، وأبناء الملوك، في دعوة صنعها له الملك، وأنكر امتيازه بذلك، على وزراء الدولة، وقواد الجيوش، وكبراء الحاشية، الذين

جلسوا على مائدة رئيس القصر، وكل طبقة من طبقات أهل هذه المزايا لها من حولها عدد عظيم من الحساد، يتحرقون في أنفسهم غيظاً وتضطرم صدورهم نيراناً، على كل فرد من أفرادها لا يفترون أبداً ولا يسكنون عن السعي والكيد، ليبيّنوا للمحسوذ بكل طريقة كانت إن كان ممّن لا يخافونه ولا يتقونه أنّهم ليسوا بدونه درجة، وأنّه لا يمتاز عليهم بشيء، ولكن شدّة تكالبهم وتهالكهم على هذا المسعى تنبئ بنفسها على ضد هذا الرأي بينهم. وأحسن الطرق التي ينبغي للمحسودين أن يسلكوها مع جماعة الحاسدين هي أن يتباعدوا عنهم، ويقطعوا كل اتصال بهم، ويقيموا لهم في وجوههم من دونهم سداً، يضمن لهم كل انفصال عنهم. فإذا لم يكن عمل ذلك في الاستطاعة، وجب على المحسودين أن يتحملوا كل ما يصدر عن أهل الحسد في حقهم من القدح، والذم، وفنون السعاية والوشاية، وما شابه ذلك بكل إغضاء وسكون فتنضب تلك الموارد في أيديهم، وتخمد نار الحسد بطبيعتها في صدورهم.

والحسد بين الناس داء قديم، لم يخل منه زمان ولا مكان، ومن قبيح الاغترار، وخطل الرأي، أن يتصوّر صاحب الفضل والذكاء، أن ظهور فضله بين الناس يقابل منهم بحسن القبول، وانشراح الصدور، ولطف التأهيل والترحيب، بل لا

بد أن يعتقد أنه يثير في قلوب العدد الأكبر منهم ثائرة العداوة والبغضاء، التي يكون اثرها فيهم شديداً بمقدار اضطرارهم إلى عدم الإفصاح عن أسبابها، وحجز النفس عن البوح بها، وبذل الجهد في سبيل كتمانها وإخفائها.

ولزيادة البيان والتفصيل لذلك، يجب أن نتصور اثنين من الناس يتخاطبان فترى في الحال أنه إذا أدرك أحدهما في صاحبه علوا المدارك، وارتفاعاً في الذكاء، أعتقد في نفسه على البداهة من غير تدبر ولا تفكير أن مخاطبه يرى فيه، ويحكم عليه، بتلك الدرجة بذاتها في انحطاط الفكر، وضعف الذهن، بالنسبة إليه، فينشأ فيه عن هذه المعارضة والمباينة بينهما رذيلة الحقد والبغض، ثم تستعر فيه جذوة الكراهة والنفرة، ولذلك قال «براشيان»: «إذا أراد الإنسان أن يعيش في راحة وسكون بين الناس، فالطريقة الوحيدة لذلك هي أن يظهر فيهم مرتدياً بجلد أضعف الحيوانات فطرة وأبسطها إدراكاً». وحينئذ فالظهور بالفضل والذكاء، بين الناس هو عبارة عن الإيماء إليهم من طرف خفي باللوم والتعنيف على قلّة جدارتهم وسوء غباوتهم وصاحب النفس الناقصة لا يملك نفسه أن تغضب وتسخط عند مشاهدتها لصاحب النفس الفاضلة وهو مدفوع بدافع هذا الحسد. وليس يخفى أنّ لذة الإعجاب بالنفس، هي فوق كلّ لذة عند الإنسان، ولا يحق

له أو يسهل عليه أن يرضى عن نفسه إلاّ عند مضاهاتها بنفوس الناس، ولا مزية عند الإنسان في أمور الدنيا كلها، أعظم في عينه من مزية الفضل والذكاء، ولا زهو له في نفسه إلاّ من جهتها لامتيازه بها، وفضله على سائر الحيوان. فمن مكروه الإقدام وسوء الحذر، أن تتظاهر فيهم باعتلاء درجتك في الفضل والذكاء، خصوصاً إذا كان ذلك على أعين الناس، وبمشهد الجموع، فإنّ ذلك يهيج فيهم حب الانتقام، ويؤرث في صدورهم نيران التشفّي، فيلجأون في ذلك إلى أسباب السب والثلب، ويخرجون من دائرة التفاوت في الفضل والذكاء، إلى دائرة الإرادة النفسانية التي نحن كلّنا فيها سواء. فإذا كان لصاحب الغنى، أو لصاحب الجاه، اعتماد على احترام الناس له ورجاء عظيم في توقيره بينهم فإنّ صاحب الفضل والذكاء لا ينبغي له أن يؤمل فيهم مثل هذا الرجاء. وإن أحسن حظ لراحته وأجمل حال له أن يقيم فيهم على قلة الإنتباه له وعدم الالتفات إليهم، وبخلاف ذلك يكون فضله أمامهم على الدوام نوعاً من أنواع التوقح والتبجح. ويكون في أنظارهم مثل من تملّك شيئاً من دونهم بطريق الغصب أو الاختلاس، ثم يجترئ على التظاهر به والتفاخر، فبذلك يضمر له كل إنسان في نفسه أن يلحق به شيئاً من التحقير، يتربّص له كل فرصة، وأقصى ما يمكن صاحب الفضل الوصول إليه بينهم بكثرة التلطف، والتواضع أن ينتزع منهم

شيئاً من العفو والصفح عن ذنبه في ارتفاع مداركه وعلو فكره، مثل انتزاع الصدقة من أيديهم. وقد قال السعدي في «الكلستان»: «اعلم أنّه يوجد عند الرجل الجاهل من العداوة والكراهة للرجل الفاضل ما يربي أضعافاً مضاعفة على كراهة الفاضل للجاهل، فإنّ الجهل المحض والانحطاط في الفكر يستوجب الرأفة والشفقة لا الكراهة والعداوة».

وإذا كان من شأن أصحاب الفضل والذكاء، ألاّ يلتفوا إلى حسد الحساد ولا يكترثوا بهم، ولا يثير فيهم ما يأتونه معهم من آثار العداوة والبغضاء ثائرة الحقد والغيظ، بل تكون معاملتهم لهم دائماً معاملة الشفقة والمرحمة، فإنّ أهل الحسد والنقص لا يزدادون إلاّ عداوة لهم وكراهة، ولا يميلون أبداً إليهم، ولا يأنسون إلاّ بمن يكون على مثالهم، أو أدنى منهم طبقة، في قلة الفضل، وضعف الذهن، وهم يفضلون في المعاشرة والمصاحبة والمخالطة، أهل الغباوة والجهل كالمرأة المتوسطة في الجمال لا تميل في المعاشرة والمصاحبة إلى من تكون أجمل منها خلقة، وألطف منها شكلاً، بل همتها على الدوام أن تختار لها في ذلك، من كانت دميمة الوجه، مشوّهة الخلقة، ليتجلّى للأنظار فضل حسنها عليها بالمقارنة والمضاهاة. فكل امتياز في الرجال بالفضل والذكاء، يدعو أهل النقص والجهل إلى إقصاء صاحبه، وإظهار البغض له،

وافتراء المفتريات عليه، وبذل الجهد في نسبة النقائص والمذام إليه، وكل امتياز في النساء بالحسن والجمال يدعو إلى التباعد والتنافر بينهن، ويهيج الحسد والبغض فيهن، فإن مزية الحسن والجمال عندهن، كمزية الفضل في كل زمان لا ينالون حظهم، ولا يدركون ما يستحقونه من المنزلة بين الناس، ولا تتقدم بهم الحال إلى ارتقاء المناصب، وعلو الدرجات التي لا تنال إلا بالتساعد والتعاون، وسعى الناس بعضهم لبعض، ولا يتيسر ذلك إلا لمن يسير على هوى الناس، ويستميلهم إليه بما يرضونه من أنواع التملق وصنوف التزلف. وأصحاب الفضل، كما علمت، قوم لا يصبرون على ذلك، ولا يسلكون سبيله، ولا ينزلون أنفسهم هذه المنزلة، ولا يضعونها في مثل هذا الموضع. فإن إحساس النفس لفضلها يحدث فيها من الترفع والإباء ما يبعد بها عن هذه المواطن، ويسمو بها عن حطة هذه الطرق والوسائل، وإنه ليعزّ على صاحب الفضل أن يشهد على نفسه بفضل الجاهل عليه، ليستميله إلى مساعدته، ويجتذبه إلى معاونته، بما يروق في عين الجاهل من ارتفاع مقام الجهل على الفضل، ولا بد أيضاً في استرضائه للجاهل من إنكار فضله بنفسه، وإخفاء ذكائه عليه، خشية أن يتولد في نفس الجاهل من ظهور هذه المزية فيه ما يتولد من النفرة والاشمئزاز منه، وفي ذلك ما لا طاقة للنفس الأبية بحمله، وإنّما يقوى على

احتمال هذا المضض وهذا الصغار من كان ناقص الحظ من الفضل منخفض الدرجة في الذكاء، هذا هو السبب الأكبر في تقدّم أهل الغباوة والجهل، على أهل النباهة والفضل، في كل عصر وجيل، فإنّهم لجهلهم وغباوتهم، يخفون على الناس، ويثقلون بمزية عليهم كما أنّهم يتحمّلون كل تفاضل وتطيب نفوسهم لسلوك طرق النفاق والرياء، واستعمال أفانين التملق والخضوع، فيستحسنون ما ليس بحسن، ويحترمون ما ليس يحترم، فتميل إليهم القلوب، وترغب فيهم النفوس، وينالون من المساعدة والمعاونة بين الناس، ما يصلون به إلى علو المنزلة، وارتفاع الدرجة. وليس ذلك بقاصر على المناصب والمراتب في الحكومات، بل تراه شائعاً في جميع المقامات والرتب، التي تتبارى إليها النفوس، وتشرف بها الأقدار مثل الرآسات الأدبية، والعلمية، وما شكلها. وإننا لا نزال نرى مجامع العلوم «أكاديمي» آهلة بالأعضاء الذين لم يؤهلهم إلى الدخول فيها فضل لهم باهر، أو ذكاء نادر، وإنما أوصلهم إليها ضعف شأنهم في الفضل والذكاء، وقوى استعدادهم في اجتذاب القلوب، واجتلاب المودات، بحبائل التلطف والتزلف، ووسائل المداهنة والتملق، وقلّ أن يرتفع صاحب الفضل الكامل مثل ارتفاعهم إلى تلك الجمعيات إلا بعد طول العناء، وشدة المناضلة في أواخر سني العمر، وقرب انتهاء الأجل.

وجملة القول في هذا الباب أن الإنسان لا يمكنه أن يدرك ما هو فوق طاقته، وما هو خارج عن قدرة تصوره، والحكم على الشيء فرع عن تصوره، بمعنى أن الرجل لا يستطيع معرفة الفضل في صاحبه، إذا لم يكن له نصيب ظاهر في الفضل، ولا يقدر له قيمة، إلا على نسبة اتساع فكره أو ضيقه في هذا الباب. فإذا كانت دائرة ذكائه ضيقة، ومنزلته من الفضل ضعيفة، لم يؤثر فيه ولم يفعل فيه كل ما يمكن أن يجتمع للرجل الفاضل من صفات الفضل والكمال، ولم يحس به أدنى إحساس ولم يبصر فيه إلاّ ما عساه أن يكون به من التهاون والإفراط في بعض الصفات الشخصية التي تكون كالنقائص والمعايب، في أنظار الجهلاء فيقفون عند حدّها ولا يدركون فيه ما سواها من أجل المزايا النفسانية في الفضل والعقل، والنباهة والذكاء، بل تكون أمام أنظارهم كألوان أمام العميان ولا يبصر نور الفضل إلاّ من استنار منه فكره وعظيم فيه نصيبه، ولا يعرف الفضل إلاّ ذووه.

كدر النّفس

لا جدال في أنّ الكدر والغم من أشدّ أدواء النفس وأعظم أمراضها، فهو إذا أنشب أظفاره فيها، لم يلبث أن يمزقها تمزيقاً، ويشتّتها تشتيتا، فترتبك على الإنسان معيشته، وتضطرب عليه حياته، حتى يرى الدنيا في عينه أظلم من الدجى، وأضيق من سم الخياط، وتصبح نفسه وكأنّها سمكة الحبر تسودّ بما تمجّه من جوفها كل ما حولها، أو كأنّها تلبس شارة السواد. كما يلبث الجسم ثوب الحداد.

ولما كان هذا الداء عصيّ العلاج أبيّ المراس وجب أن يعمد الحكيم في علاجه إلى أقوى ما يكون لديه من الأدوية المختلفة فللمرض الشديد الدواء الشديد وأول شطر في نفع الدواء للبدن أن يواظب المريض على تناوله ليكمل سريانه فيه. ولا نفع لما نعرضه عليك هنا من علاج الأكدار، إن لم تأخذ فيه أولاً بطول المواظبة على التدبير والتفكير، وشدّة الإمعان، وتكرار النظر، وكثرة التمرّن، والتدرب حتى يسري العلاج في النفس فتتغذّى به.

إذا كان الإنسان يقدر بقوة التمرّن والتكرار، أن يصدر عنه من الأفعال العجيبة الجسمانية والنفسانية ما يدهش الألباب، مثل ذلك، الذي كان يحمل ثوراً ويعدو به أميالاً في أعياد أثينا القديمة، ومثل الذي يلعب في ثماني رقاع للشطرنج في آن واحد، وهو غائب عنها، مشتغل بلعب آخر من ألعاب الورق في الدنيا الجديدة فما أولاه بأن يروض فكره، ويمرن نفسه على الأخذ بأحكام الفضيلة، حتى يصل إلى الغاية المقصودة منها، وهي «السعادة» لكنّك إذا قرأت ولم تتدبّر، ونظرت ولم تتبصّر، وحفظت ولم تعتبر، لم تنتفع بكثرة المطالعات، وطول المعالجات.

ولا خفاء في أن البدن مرتبط بالنفس، كما أنّ النفس مرتبطة بالبدن، وأنّ مرض النفس يؤثّر في البدن فيمرض البدن، ومرض البدن يؤثّر في النفس فتمرض النفس. وأول مراقي السعادة «النفس السليمة في الجسم السليم». ولنبدأ بالكلام عن صحة الجسم التي تتوقف عليها صحة النفس. فيلزم لصحة البدن أن يجتنب الإنسان كل إفراط في الشهوات، وكل ما من شأنه أن يورث اضطراباً في الجسم، ثم يأخذ بشروط الصحة، من استنشاق الهواء النقي في الشمس المسفرة، والاستحمام بالماء البارد، وأن يتعهد إفراز الأخلاط الزائدة عن القانون المطلوب، وأن يكثر من الحركة، فإن الحياة في الحركة.

وإنّك إن نظرت إلى البدن من داخله، وجدت ما فيه من الأحشاء والأعضاء في حركة مستديمة، فترى القلب يقذف مجموع ما في الجسم من الدم إلى الأوعية الكبيرة والصغيرة في ثمان وعشرين ضربة من ضرباته. وتجد الرئة تعلو وتنخفض بحركة سريعة دونها حركة ألة البخار، وتشاهد الأمعاء في انبساط وانقباض، وفي الجسم أعضاء وظيفتها الامتصاص والإفراز في آن واحد، على الدوام، وللمخ حركتان عند كل ضربة من ضربات القلب، وعند كل استنشاق للنفس، فإذا قلّت حركة البدن من ظاهره كما هي الحال الذين يعيشون عيشة الرفاهية والسكون، لم يتمّ التوازن بينها، وبين الحركات التي في باطنه، فيقع الجسم كله في اختلال، لأنّ حركة الباطن تحتاج إلى المعاونة بحركة الظاهر، وتتطلبها ليستقيم الوزن، ولا يختل نظام الجسم والنفس معاً. وقد ترى الرجل ساكن الجسم وصدره يتميّز بالغيظ، ويغلي بالحقد، فإذا دام على هذا السكون لم تأمّن عليه مغبة ذلك الاختلال، ولهذا فإنّهم ينصحون للإنسان إذا غضب أن يأتي بحركة من بدنه، وفي الحديث الشريف «إذا غضب أحدكم فليتوضأ» وفي كلام «أرسطو» «ليستحم بالماء البارد» وترى الأشجار لا تسير سيرها الطبيعي في النمو إذا لم تعرضها للهواء لتهتز أغصانها فتساعد الحركة في ظاهرها، حركة نموّها في باطنها.

فتعهد البدن بما يصلحه من الغذاء والنظافة والحركة وسواها واجب والسير به على قانون الصحة متعين لسلامته وسلامة النفس معه، ولا تعجب للإسهاب، والتوكيد منّا في هذا الباب، فإنّه أصل معالجة النفس، وممّا يدلك على ذلك أنّك ترى الشيء في حال انتظام صحتك، فترتاح إليه نفسك وتستملحه، ولكنّها إذا رأته في حالة من حالات الجسم المعتلة انقبضت منه ونبت عنه، والشيء هو هو واحد لم يتغيّر، وإنّما الذي تغيّر نظام النفس بتغيّر نظام الجسم. ومن هنا قاعدة الحكماء المشهورة، بأنّ الأشياء الخارجة عن الإنسان لا قيمة لها في ذاتها، وإن طريقة نظرنا إليها، وكيفية استقبالنا إياها هي التي تلبسها لباس الحسن أو القبح. وقد أجمع علماء الأخلاق أنّ تسعة أعشار السعادة قائمة على اعتدال البدن وصحة الجسم، فإنّ سلطانه على النفس عظيم، تعتل باعتلاله، وتعتدل باعتداله. وقد ترى كثيراً من أمراض البدن تؤثر في الصفات النفسانية أعظم من تأثيرها في البدن نفسه، فيختل التصوّر، ويتبلّد الذهن، وتسوء الطباع. ومن سوء الرأي، وخبل العقل، أن يهمل الإنسان أمر بدنه، ويشتغل عنه بسفاسف الأمور، فينهكه في سبيل المطالب الباطلة، ويجعله فدية للسعي وراء المال، أو الجاه، أو العلم العقيم، أو المجد الزائل واضرب عرض الحائط بقول المتنبي:

وإذا كانت النفوس كباراً

تعبت في مرادها الأجسام

وتنقسم معالجة النفس من أكدارها إلى قسمين: الأول معرفة حقائق الأشياء في ذاتها، والثاني معرفة ما تلبس بالأذهان من الأوهام الباطلة التي تغشى على الحقيقة وتشوهها، فتوقعنا في الضلال، وتورثنا الشقاء والبلاء. ولما كان من نتائج شفاء النفس من أحزانها وأكدارها، الوصول إلى راحة الحياة، فقد تعين علينا البحث أولاً عن ماهية هذه الراحة في معيشتنا، وعن ماهية الألم، وعن حقيقة الخير، وحقيقة الشر، وهل هذه الدار دار ألم وشقاء، خالية من أسباب السعادة والهناء، أم فيها راحة للعيش وسعادة للحياة فنقول:

إنّ الله جلّت قدرته، لم يرد بخلقه شراً في هذه الدنيا، ولم يجعلها مستقراً للألم، ومستودعاً للعذاب، تعالى اللّه عن ذلك علواً كبيراً، بل جعلها لأوليائه، وأولياؤه هنا أهل الفضيلة، دار سعادة وهناء فانية، يرحلون منها إلى دار سعادة وهناء باقية. قال اللّه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس: ١٠) ولقد اشتبهت علينا الأمور واختلفت في نظرنا الأشياء، وأخذنا بتضليل المضلين، وبطلان المبطلين، فصرنا لا نفرق بين الخير والشر، والطيب والخبيث، والنافع والضار، واللذة والألم، بل أخذنا هذا مكان ذلك، وصبغنا الضد بصبغة ضده، وحولنا الأشياء عن

أصولها، فوقعنا في شر العذاب.

ومن خالف الحقيقة أعني فطرة اللّه التي فطر الناس عليها، وانسلخ عنها، فأحرى به ألا يلقى في دنياه راحة، ولا في حياته سعادة، فنحن الذين نجلب الشر لأنفسنا، ونسود عيشنا، ونخرب بيوتنا بأيدينا، ونشكو الزمان وما فسد الزمان وإنّما نحن الفاسدون. قال الشاعر:

يــقــولــون الــزمــان بــه فــســاد

وقــد فــســدوا ومــا فــســد الــزمــان

وقال المتنبي:

كــلّــمــا أنــبــت الــزمــان قــنــاة

ركــب الــمــرء لــلــقــنــاة ســنــانــا

وكـمـا أنّـه لا يـمـكـن طـبـيـب الأبـدان أن يـعـرف عـلاج الأمراض وشفاءها إلاّ بعد معرفة تركيب الجسم والوقوف على وظيفة كل عضو فيه، كذلك لا بدّ لحكيم النفوس من تشريح الفكر، ومعرفة وجوه الخطأ والصواب فيه لانتظام صحة النفس.

فاختلال صحة الفكر مبعثه الخطأ في الحكم على حقائق الأشياء، والغلط في التقدير، وضعف التمييز بين الصحيح والفاسد.

فتوازن الفكر، وصحة التمييز وسداد الحكم، ومعرفة الأشياء من ذاتها، مجردة عمّا يشوبها من الخطأ والوهم هو ما نسمّيه عقلاً، وهو أحد أركان الفضيلة التي لا تنال السعادة والراحة في الدنيا بدونها.

وهذه السعادة التي نتكلّم عنها، هي التي كانت الشغل الشاغل لجماعة الفلاسفة والحكماء منذ الدهر الأوّل فذهبوا فيها مذاهب شتى، واختلفوا في كنهها اختلافاً بيناً، دعا إليه حب الجدل، وانتصار كل واحد منهم لرأيه، حتى بلغ بهم الأمر أن جعلوا لما يسمّونه السعادة العظمى، مائتين وتسعين وجهاً كل واحد منها يختلف عن الآخر، والرأيان الغالبان بين تلك الآراء المختلفة، أحدهما أن سعادة الحياة هي ذات الفضيلة، وأنّه ينبغي للإنسان أن ينشدها بكل وسيلة سواء أوصل إليها من طريق الألم، أم من طريق اللذة، وثانيهما أنّ السعادة العظمى في اللذة يبلغها الإنسان من طريق الفضيلة، فالفضيلة هنا واسطة وهناك غاية.

ومن تأمل في هذين الرأيين وجب عليه أن يأخذ بالأقرب منهما إلى الطبيعة البشرية، والفطرة الإنسانية، وهو ثانيهما. لأنّنا إذا تأملنا في أطوار الإنسان كلّها وجدناه يأنس إلى اللذة منذ نشأته في الوجود، ويميل بطبعه إلى التمتع بها ويجدها خيرا عظيما.

ثم هو ينفر كل النفور من الألم ويتقيه ويسعى جهده في دفعه عنه، ويراه من أكبر الشرور. هذا في حالة صحة الحكم الذي فطرته عليه الطبيعة قبل اختلاط الفكر وفساده، ولا محل هنا لإقامة البراهين، فالأمر محسوس لا نزاع فيه. وما كان محسوساً لم يحتج إلى برهان والفرق ظاهر بين الاحتياج عند بيان الحقيقة إلى ترتيب المقدمات واستخراج النتائج منها، وبين عدم الاحتياج لغير الشرح والوصف في بسطها، والحسّ هو الحاكم الأول على الإنسان في جميع أحكامه، فلو نزعناه عنه، لم يبق لديه شيء من قوّة الحكم، ولم يدرك التمييز بين ما هو موافق للطبيعة وبين ما هو مخالف لها.

ولا يوجد أحد في العالم يكره اللذة، وينفر منها، لأنّها لذة في ذاتها، بل لأنّها قد ينتج عنها الألم لمن لم يعدّلها ويأخذ بحسب أحكام الفضيلة. كما أنّه لا يوجد إنسان يحبّ الألم ويطلبه لكونه ألما في ذاته، بل لأنّه قد ينتج عنه لذّة. ولذلك ترى الإنسان يحتمل كثيراً من الآلام لأجل أن يتوصل بها إلى نتيجة نافعة، فالرجل الذي يبحث عن اللذة التي لا ضرر في عاقبتها لا يكون ملوماً في حكم العقل، بخلاف من يبحث عن الألم الذي لا يكون من ورائه لذة.. نعم إننا نلوم كل من غرته جاذبية اللذة الوقتية، فعمى عمّا يلحقها من الآلام والأكدار، التي تلحق بالنفس في استسلامها لقيادة

الشهوات، كما أنّنا نلوم أولئك الذين يذهب بهم الترف والليان إلى اتقاء الألم بإغفال القيام بالواجب عليهم.

وشأن العاقل في اللذة إذا كان حراً في تناولها، ولم يكن له ممانع عنها، أن يتمتع بها، ويتخلص من الآلام. ولكن إذا اعترضه فيها واجب من الواجبات الاجتماعية، أو ضرورة من نظام المعايش، وجب عليه أن يرفض لذته، ويتقدم لتحمّل الألم والتعب، فإنّ نبذ اللذات الصغيرة لاقتناء اللذات الكبيرة، واحتمال الآلام الخفيفة، لدفع الآلام الشديدة، هو ما يقضي به حكم العقل على الإنسان. وليكن عقله ميزاناً يزن به الراجح من المرجوح فليست اللذة في كلّ هذا المعنى المشهور بين الناس، بل هي ما يلائم الجسم والنفس، ويصل بهما إلى سعادة الحياةَ من طريق الفضيلة.

إنّ اللذة الكاملة، التي ننشدها من طريق الفضيلة، ونجتهد في تعريفها لك، ليست هي ذلك الإحساس الذي تحسّه في أثناء سد الحاجة. بل هي الحالة التي يكون عليها الجسم قبل حدوث الألم. فلا يقال للجائع وهو يلتقم طعامه لقمة بعد لقمة، إنّه قد بلغ اللذة، وإنّما يبلغها عند الانتهاء من الطعام، لأنّه سائر أثناء الطعام في طريق رفع ألم الجوع ولم يصل إلى غايته بعد وهي الشبع، الذي تناول الطعام لأجله. فاللذة إذن في تمام رفع الألم، لا في مباشرة رفعه، لأنّها في

مباشرة رفعه غير كاملة، واللذة الكاملة هي الراحة التي يجدها الجائع عند الشبع، والظمآن عند الارتواء، والسهران عقب المنام.

لكن الناس بمعزل عن معرفة قدر هذه اللذة، التي هي سلامة الجسم من الألم، وسلامة النفس من الاضطراب، ومن جهلهم بها أنّهم لا يدركون ما هم فيه من تلك الراحة، إلاّ بعد زوالها عنهم، ولا يتمتعون بها وهم فيها، ولا يتوهّمونها إلاّ في أثناء المسير إليها، فترى صاحب الجسم السليم من كل علّة لا يدرك أنّه في أعظم لذة من الصحة، إلاّ إذا حلّ به مرض من الأمراض، يرفع عنه الحالة التي كان عليها من الراحة. فإذا تدرج في أدوار النقاهة من مرضه، توهم فيها لذة، وإنّما حقيقة اللذة هي الرجوع إليحالته الأولى التي كان غافلاً عنها. وكذلك لا تكون الراحة للمقيد في الحديد عند فك القيود عنه، بل عندما يعود جسمه إلى الحالة التي كان عليها قبل وضع القيود في رجليه. وهذا الوهم هو من أكبر الأسباب التي سودت حياة الناس بالأكدار والأحزان. وجعلتهم يعتبرون أنفسهم في الشقاء وهم في نعيم، ويرونها في نعيم وهم في شقاء. غافلين عن نعمة تلك الراحة التي هي منتهى السعادة والتي قيل فيها: «ليس للراحة قيمة» فهي فوق كل قيمة في متاع الحياة الدنيا.

وإذن فقد تقرّر أن المسافة التي يغيب فيها الألم، لا المسافة التي يرتفع في أثنائها، هي اللذة المقصودة لدى الحكماء. والعاقل الحكيم لا يمتنع عليه أن يدرك الراحة في حياته على كل حال، ولو كان واقعاً في الألم. فإنّ الألم إذا كان طويل المدّة كان ذا فترات تكون فيها الراحة وإن كان شديداً فإنّه يكون قصير المدّة لسرعة الخلاص منه. فالذي يهون على نفسه تحمل ما لا بد عنه من الآلام في هذه الحياة على موجب هذه القاعدة ـ إما بتحمّلها والتمتع براحة فتراتها في حالة خفتها، وإمّا بارتقاب الخلاص منها في حالة شدّتها ـ هو من يملك راحة الدنيا وسعادتها.

وهذه الراحة هي التي يطلب الإنسان الفضيلة من أجلها، ويرغب فيها للوصول إليها، كما أنّه لا يطلب الطب لذات الطب بل للتوصل به إلى صحة الجسم، التي تنشأ عنه كما أنّه لا يطلب صناعة الملاحة لذاتها بل للوصول إلى السلامة. والحكمة التي هي صناعة الحياة، إذا لم يكن منها راحة للإنسان في حياته، فهي غير مرغوب فيها، ولا مطلوبة لذاتها. هذا هو تعريف اللذة التي يخطئ الناس في معرفتها، ولا يدركون حقيقتها، ولا وصول إليها إلاّ بالحكمة التي تكشف غطاء الأوهام، وتمكن الإنسان من الحكم الصحيح على الأشياء، وترفع عنه غشاوة الغباوة التي استحكمت فيه،

وضلّلته حتى صار يتخوّف ممّا لا خوف منه ويحزن ممّا لا حزن فيه، وهي التي ترشده إلى تقليل الرغبات.

والنفس راغبة إذا رغبتها
وإذا ترد إلى قليل تقنع

وتنزع منه الاعتداد بأحكام الناس وآرائهم الفاسدة المتولدة فيهم من جهلهم بالحقائق، والتقليد على العمى. فتنطفئ منه نار الطمع والشره. التي طالما أودت بالأفراد والجماعات والشعوب بما أورثتهم من الأحقاد والأضغان، وما أضرمته من نيران الفتن والحروب. وجعلت الناس في شقاء دائم، وألم مقيم، فالعاقل هو الذي ينفي عنه أسباب المخاوف، ويقلّل من الرغبات، ويرضى بالكفاف ويقصر همّه على ما تقضي به الحاجة الضرورية والطبيعية، التي ليس من ورائها طمع، أو شره فإنّهما مجلبة الأحزان والآلام، ومنبع المخاوف والشرور، وقد ألمّ بذلك أحد الشعراء في قوله:

مرحباً بالكفاف يأتي عفياً
وعلى المتعبات ذيل العفاء
ضلة لامرئ يشمر في الجمـ
ـع لعيش مشمر للفناء
يحسب الحظ كلّه في يديه
وهو منه على مدى الجوزاء

ليس في آجل النعيم له حـ
ـظ وما ذاق عاجل النعماء

ذلك الخائب الشقي وإن كا
ن يرى أنه من السعداء

حسب ذي أربة ورأى جلي
نظرت عينه بلا غلواء

صحة الجسم والجوارح والعر
ض وإحراز مسكة الجوباء

وقد آن أن نبيّن غلط الناس في حكمهم على الأشياء وضلال رأيهم، إذ يعتبرون الخير منها شراً، والشر منها خيراً. وأكبر خطأ يتملكهم هو خوفهم وفرقهم من الموت الذي هو رافع الأسقام، ومزيل الآلام، فيعدّونه أعظم الخطوب، وأكبر الشرور، واعلم أنّه ليس شيء من أمور الدنيا إلاّ وهو محل للشك حتّى قال بعض الفلاسفة: «إن كل شيء يقبل الشك» حتى قولتي هذه «إنّ كلّ شيء يقبل الشك» ومن بينهم طائفة يعرفون بأهل الشكوك فهم يشكون في كل شيء، حتى في وجود أنفسهم ويعتبرون الحياة بما فيها حلم حالم، ورؤيا نائم، وقد أشار إلى ذلك شعر يتتبع أقوال الحكماء:

هوّن على بصر ما شق منظره
فإنّما يقظات العين كالحلم

ولكن مهما كان الشك في أمور الحياة، فإنّه يوجد أمر واقع حق لا شك فيه هو الموت. ولكن من عجيب. الأمر أنّ الإنسان يوقن بالأباطيل؛ ويؤمن بالخرافات، ويصدق بالوهم والخيال، ولا يوقن بالحق وهو الموت وكأنّما هو يشك فيه:

والموت لا يخفى على أحد
ممّن ترى وكأنّه يخفى

ولذلك كان من أول هداية الأنبياء للناس تذكيرهم الموت، ومن أكبرهم الفلاسفة تفكيرهم به وبسط القول في أنّ الحياة باطل والموت حق. وقد أخذ أهل الصين عن فلاسفتهم سنة أجروها بينهم مجرى العادة في وجوب تذكر الموت كل حين، فإذا ولد الطفل عندهم صنعوا له نعشاً بقدره، ووضعوه بجانب المهد يجدّدونه على مقدار النمو في الطفل، ولا يزالون يفعلون ذلك حتى إذا بلغ أشدّه وضعوا النعش بجانب السرير، إلى أن يحل يوم أجله فيحملونه عليه، يشيرون بذلك إلى أن يوم الولادة ويوم الوفاة أمران متلاصقان، وحبلان متصلان، وأنّ الإنسان يمشي في هذه الدنيا، وكأنّه عابر جسر عن يمينه الموت، وعن شماله الحياة، وأنّه كما يدب بنموّه في الحياة، يدبّ في آن واحد بأنفاسه نحو الممات، وأنّه يجب على العاقل أن يحضره على

الدوام ذكر الموت كما يحضره ذكر الحياة، وأنّ اليقين كل اليقين في أعواد النعش، والشك كل الشك في أساطين القصر. وهم يلبسون السواد حداداً في يوم الولادة، والبياض فرحاً عند حلول الأجل حتى أنست نفوسهم بالموت، ولم يعتبروه شراً، بل هو الخير كله عندهم، ولذلك لم يجعلوا بينهم حكم الإعدام قصاصاً وعقاباً، وإنّما العقاب عندهم هو في إيلام الأجسام إيلاماً متواتراً لا تقصر معه مدة العمر، لأنّ الموت هو المنقذ من الآلام كلها، وأن جعله أهل المدنيات الأخرى عقاباً لجزع النفوس منه، وتخوّفهم الدائم من وقوعه، فكأنّ تصوّره في الوهم هو العقاب الأكبر عندهم.

فمن منتهى غباوة الإنسان وجهله أن يتخذ في كل منبت شعرة من جسمه حبلاً من الأمل يعلّقه بالبقاء في الحياة الدنيا، ويمحو من ذاكرته كل سبب يربطه بصفائح القبر.

والناس ينقسمون بالنسبة إلى ذكرى الموت قسمين: قسم لا يتذكّر الموت، ولا يجري له على خاطر، كأنّه قد رسخ في ذهنه إلاّ فناء مع البقاء لا هلاك مع الوجود وهو لا يحسّ هذه الحقيقيه أم الحقائق في الدنيا إلاّ عند المشاهدة والعيان، ولا يذكر الموت إلاّ ريثما تنقضي عنه المشاهدة كأنّ يشتد به مرض يذكره بالموت، فإذا قام من مرضه لم يتذكّر الموت بعده. وإذا شاهد الموت بعينه في أهله وجيرانه، لم يبق ذكره

لديه إلاّ ريثما يطرأ عليه شغل من مشاغل الحياة يصرفه عنه، فيعود إلى ذهوله الأول وعماه المستديم.

وقد يظن بعض الناس أنّ في الذهول راحة من التفكّر في الموت، والحقيقة أنّ في هذه الأوقات القصيرة التي يتذكّر الذاهل فيها الموت عند نزول المرض به، أو عند وفاة أحد أهله وصحبه، من آلام الجزع والفزع ما لا تقاس آلامه بآلام الحياة كلّها ويقع هذا التذكّر الفجائي على ناحيته موقع زلزلة تهدم في لحظة واحدة جميع ما شيّده في رأسه من الآمال، وما ابتناه في خياله من الأماني، التي تسبح به في تيار الخلود، أو هو نفخة الصور تذهب برشده، وربّما أصابه في أعضائه وجوارحه فجعله ثاني قريبه أو صاحبه في القبر.

لما رأت أختها بالأمس قد خربت

كان الخراب لها أعدى من الجرب

وهم أشد الناس حزناً عند فقد فقيد لهم، لا للأسف عليه، ولكن لخوفهم أن يصيبهم ما أصابه، وهلعهم أن يجري عليهم ما يجري على من بجانبهم. وإذا قابلتهم يوماً بقولك لهم «مات فلان من أصحابكم». اعتراهم الدهش والعجب، كأنّك أخبرتهم بأمر ليس من الجائز وقوعه، فهم يبادرونك بقولهم «وكيف مات»؟ يستفهمون عن سبب الموت لا عن الموت نفسه!!.

ومن دأبهم أن يعملوا ما في وسعهم لصرف أفكارهم عن ذكرى الموت، ويدأبون في طيّ المذكرات به، كان لي صاحب أديب إذا قرأ قصيدة «بانت سعاد» أغفل منها قول كعب فيها:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته

يوماً على آلة حدباء محمول

وآخر كان لا يمشي في جنازة، ولا يحضر مأتماً، ولا يزور مقبرة. فإذا رأى يوماً ألة من آلات الدفن، أو الكفن، هرب ببصره عنها، واستعاذ اللّه منها، ومنهم من يهجر بيته إذا مات فيه ميت، حتى لا تذكره جدرانه بخروج الميت منه. ولو أنّك أهديت إلى أحدهم صورة جمجمة من ذهب مرصعة بالجواهر، لاستنكرها وبشع منها، ونبذها عنه بعيداً، وربما أضمر لك العداوة، وسخط عليك لاعتقاده أنّك قصدت به السوء في تذكيره بهذا الشر العظيم، والأمر الفظيع. حتى لقد صارت تلك الجمجمة التي بقيت في محافل الماسون أثراً من آثار آبائهم الأولين في وجوب تذكر الموت والتفكر فيه، آلة بين أيديهم اليوم من آلات الإرهاب والتخويف، يمتحنون بها شجاعة الداخلين فيهم، ولو بحثت في رأس الماسوني الحديث الدخول عن أثر ما قاساه ليلة دخوله من تصنيعهم في الإرهاب والتخويف لم تجد باقياً منه في هذا الرأس إلاّ تلك

الجمجمة، وكان في مصر رجل من أهل العلم والورع يتطوع لغسل الموتى، إذا دعاه أمير أو كبير لغسل من يعزّ عليهم موته تبرّكاً به، فكان مع سعة علمه، ودماثة أخلاقه، ونظافة ثيابه، ورقة شمائله، إذا دخل مجلساً من مجالس العظماء انقبض الجميع، وانسل الواحد منهم في أثر الآخر، واشمأزوا أن يضعوا أيديهم في يده، وشاهدنا سيداً من السادات قد تهدّمت زاوية آبائه وأجداده، الذين يعيش في كنف مجدهم، وشرف نسبتهم، ويفخر بالاتصال بحبل تلك الرفات، يفزع ممّن يذكره ببناء المتهدم، ويستهول على نفسه أن يزور المقبرة يوماً لينظر في وجوه ترميمها. أمّا إذا قال قائل لواحد منهم في مغاضبة «إن شاء الله تموت» فهنالك الهول الأكبر من العداوة والبغضاء، لأنّه جاء بأفظع ما يكون من أنواع الدعاء عليه.

ولضرب الأمثال وذكر النوادر في هذا الباب مجال متّسع نخشى معه الملل من كثرتها، ويكفي الإنسان أن ينظر إلى من حوله في كل ساعة من كل يوم فيرى العجيب الغريب من الشك في اليقين والارتياب في الواقع المحتوم.

وأمّا أهل القسم الثاني بالنسبة إلى ذكرى الموت، فهم أولئك الذين تراهم يذكرونه دائماً، لخشيتهم من وقوعه، وخوفهم من نزولهم، فيتولاهم الرعب، ويترقبون وقوعه في

كل حين، ويعتبرونه هادم اللذات، ومقوض بناء السعادة، وأكثر ما يذكرونه إذا خلوا من أشغالهم، وانتقلوا إلى أوقات فراغهم، فيكدرون صفاءها ويسودون بياض عيشتهم، بالتخوف الدائم من زوالها، وأشدّ ما يكون عذابهم من ذكرى الموت، إذا أردف الله عليهم النعمة في أثر النعمة، وزادهم من متاع الدنيا وزينة الحياة، فلا يبصر أحدهم ولده يلعب أمامه، إلاّ وتغلب على فكره التخوّف عليه من الموت، أو الترحل قبله ولما يتمتع به، ولم ينظر إلى ما اكتنزه من مال واقتناه من زخرف، إلاّ نظر المغشي عليه خشية الحرمان منه بالانصراف عنه، وما يكون مصيره بعد رحيله، ومأله بعد زواله، لا يزالون هكذا في حال القلق، والهلع، والجزع، والفزع، والرعب، والكدر، فتنقبض النفوس، وتطرق الرؤوس، وتسقط عليهم الهموم كسفاً من العذاب، يتململون تحتها تململ السليم المنهوش، ويئنون أنين المصفد في القيود ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ (البقرة: ١٧ ـ ١٩).

وترى هؤلاء الذين يذكرون الموت ويخافونه، ويحرصون على الحياة في هم دائم، وعناء مقيم، للتوقي من الأخطاء،

والتحرز من أسباب الهلاك، ولا يكتفون في ذلك بما يدخل في طوقهم الاحتراس منه، بل يتجاوزونه إلى معالجة ما لا دافع له من الأقضية المحتمة والنوازل الطارئة والبلايا العامة، كالطواعين والأوبئة وغيرها من أمراض العدوى وكالزلازل والصواعق والعواصف. ومنهم من لا يركب السفينة خشية الغرق ولا القطار خوف المصادمة، ومنهم من يقوم من منامه مرة بعد أخرى فيدور في أنحاء البيت كالعسس يتفقد أثاث الحجرات أن يكون اتصل بها شيء من أسباب الحريق. فإذا أمن المسكين ساعة واستغرق في نومه فرأى في الرؤيا أن أحداً ممّن مات من أقاربه أو أصحابه دنا منه أو سلم عليه أو دعاه إليه قام من منامه في أشدّ حالات الفزع كالذي يتخبّطه الشيطان من المسّ أينما وجّه وجهه ترقب وقوع الموت وحلول الأجل وصدق الرؤيا، وكأنّه في فزعه ليله ونهاره عدو المعتصم في قول أبي تمام:

وعلى عدوك يا ابن عم محمد

رصدان ضوء الصبح والأظلام

فإذا تنبّه رعته وإذا غفا

سلت عليه سيوفك الأحلام

ومن غريب المناقضات في أمرهم أنّهم مع هذا التوجّس الذي همّ فيه إذا ذكرت اسم الموت في مجالسهم لووا

أعناقهم وكادت تقف حركات قلوبهم من الغيظ ونقموا عليك أن ذكرتهم بما لا يغفلون عن ذكره والتخوّف منه ليلهم ونهارهم. كما أنّهم يستبعدون الموت فلا يكادون يصدقون بموت الفجأة، فإذا سمعوا بحادثة من هذا القبيل أخذوا يتعللون العلل ويتمحلون الأسباب وينتحلون للميت أمراضاً كامنة وأدواء مزمنة لم تكن به.

وإذا أخبرتهم بموت شاب في غضارة عمره وغضاضة سنّه، زادوه ما شاؤوا من عدد السنين، كأنّ الإنسان لا يموت شاباً، ولذلك تراهم يخفون حقيقة أعمارهم، ويجتهدون في تنقيص سنيها، ويقفون على سن واحد، وإن جرت من بعده السنون ليغشوا أنفسهم ويطرحوا من فكرهم إمكان المفاجأة من ذلك العدو الأحمر أو الأزرق في حين الغرة وفي مقتبل السن، وليطمئنوا إلى تراخي الأجل.

أما سيرتهم في التحرز لأجسامهم، والتوقي لأبدانهم، في ليلهم ونهارهم، أن يعتريها اعتلال، أو يصيبها اختلال، فإنّهم يتغالون فيه إلى حد الجنون، فيحاذرون هبوب النسيم، وحرارة الضياء، ويتوهمون في كل لقمة تخمة، وفي كل جرعة غصّة، والمكروب وما أدرك ما المكروب في الطعام وفي الشراب فيلتزمون الحمية، ويتخيرون لهم ألواناً خاصة من الغذاء يضوي بها الجسم ويضعف، فيعمدون إلى استعمال

الأدوية المختلفة بجواهرها المعدنية، لتقويته فيزداد بها ضعفاً، لأنّه لا يمتصها بل ترسب فيه، وتعطل وظائفه، وتفسد المعدة التي عليها صحة الجسم كله، فينتقل الوهم إلى الحقيقة، وتتناوبهم الأمراض التي أعدوا أنفسهم لها بأيديهم، فيقعون في يد الطبيب، فإذا لم ينته به جهله وطمعه إلى إراحتهم بالموت عاشوا بين يديه عيشاً كله آلام وأوصاب إلى أن يحل بهم الموت من خوف الموت، ويذهبوا إلى حال سبيلهم، لا هم تمتعوا بالحياة، ولا هم نجوا من الموت، ولا تنكر علينا ما قدمناه من أن التوهّم والتخوّف يحدث الأمراض في الأجسام، فإنّ للخوف سلطاناً على النفس والجسم، لا يعدله سلطان في العالم، وله أعظم أثر في فساد صحة الإنسان، فيختل به نظام الجسم ويؤدي به إلى الهلاك. ولذلك لا نرى بدأً من الكلام فيه للانتباه إلى إضعاف سلطته، ووجوب طرحه جانباً، فإنّ في نموّه، والاسترسال فيه، شقاء الروح، وسقم الجسم، فتسيل منه ينابيع الأحزان والأكدار، وتتفجّر عيون الغموم والهموم فنقول.

أجمع جلّة العلماء من أطباء العصر الحاضر، بعد كشفهم وبحثهم، على أنّ مجرد التوهّم والتخوّف، يحدث أمراضاً في البدن لم يكن لها من سبب سواه في الباطن والظاهر، ولا محل هنا للتطويل بذكر مباحثهم التشريحية، وإنّما نذكر شيئاً

ممّا يستشهدون به برهاناً على مباحثهم العلمية، من الحوادث والوقائع التي شاهدوها بأعينهم، ومارسوها بأنفسهم، ممّا لا يقبل الشبهة، ولا يعتوره الريب، ففيها الكفاية.

باشر أحد الأطباء تشريح ميت مات بداء الكلب، فاعتراه خوف شديد، أن يكون قد علقت به الجراثيم، وأصابته العدوى، واشتدّ به الخوف فأخلّ بنظام الجسم، فتولاه الأرق، وفقد شهوة الطعام وانقبضت نفسه عن تناول كل سائل، فكان إذا ألهبه العطش شرب جرعة من الماء لا يكاد يسيغها، وزادت به الحال إلى أن هام على وجهه في الطرق ضالاً مختبلاً، وأدرك بعض أهل صناعته خطبه وأنه من أثر الخوف والوهم وسوء التصوّر، فصرفوا جهدهم لتخفيف ما به، وصحبوه أياماً لم يفارقوه فيها ساعة، وما زالوا به حتى أقنعوه بأنّه سليم الجسم معافى من تلك العدوى، وأنّ ما به هو من أثر الخوف لا سواه، فأخذ ينسى بفضل اجتهادهم تلك الفكرة القائمة به وشفي منها شفاء تاماً. ومن الأمور المقررة في أقوال الأطباء أنّ مجرد الخوف يولد في الجسم أعراضاً هي بذاتها أعراض داء الكلب، وذهب أحد مشهوريهم إلى أن الخوف هو سبب الكلب، ليس سببه عقر الكلاب ولعابها. روي أنّ كلباً مسعوراً عقر أخوين وكان أحدهما على أهبة السفر في يومه إلى أميركا فسافر إليها وغاب خبره عن

أهله، فلمّا عاد إليهم بعد عشرين سنة أخبره أحدهم بأنّ أخاه مات من أثر عضة الكلب، فانتفض فوقع تأثير ذلك عليه كالصاعقة، وظهرت عليه أعراض داء الكلب في أقصى حدّتها ولزم فراشه حتى مات.

وقد ثبت أن الجانب الأعظم ممّن يصابون بداء الكلب لم تكن إصابتهم ناشئة إلاّ عن إخبارهم بأنّ الكلب الذي عضّهم كان مسعوراً. ولا يمكن الطبيب أن يميز بين الإصابة بالكلب الناشئة عن الخوف، والإصابة الناشئة عن عدوى الداء.

وكما يمرض المصاب بالوهم، فإنّه يشفى أحياناً بالوهم: دعي طبيب لمعالجة أحد المصابين بعد أن يئس منه جميع الأطباء وحكموا بموته، فأخذ يقلب جسمه تقليباً دقيقاً ثم مال عليه بعد ذلك ولثم فمه، فما لبث المريض أن شفي بفضل تلك القبلة التي اعتقد بها أنّ الطبيب لم يقبّله إلاّ وهو آمن على نفسه من عدوى ذلك المرض، وأنّه خلو منه.

وأكثر ما يفتك الخوف بالناس في أيام الأوبئة والطواعين، والذي يعظم خوفه يكون أكثر عرضة لها من سواه، وقد يكفي الخوف وحده لسبب أعراض الوباء ولو كانت جراثيمه منعدمة بتاتاً. وممّا يحكى أنّ إحدى النساء بلغها وفاة أخت لها بالوباء في بلاد بعيدة فجزعت جزعاً

شديداً، وخيّل لها أن سيصيبها ما أصاب أختها. واستولى على فكرها هذا الوهم فأضاع منها شهوة الطعام وأحدث لها إسهالاً، ولم يستطع الأطباء إنقاذها إلاّ بعد أن أثبتوا لها بالبراهين القاطعة أنّه يستحيل إصابتها بتلك العدوى لبُعد الشقة بينها وبين أختها، وأن ما أصابها إنّما أصابها من أثر الخوف.

وقد وصف أحد الأطباء زلزلة في كتابه فقال: إنّ عدد الذين أصيبوا بالحمى من شدّة الخوف وماتوا بها، كان أكثر من الذين تهدمت عليهم الدور.

وقد يموت بعض الخائفين فجأة، جزعاً من الذهاب إلى المستشفى. وبعض الناس إذا اشتدّ به الخوف انتحر، كما يحصل لبعض الجبناء إذا سيّروهم إلى الحرب فيستعملون أسلحتهم في قتل أنفسهم ليخلصوا من آلام الحرب.

ومن القول المتواتر في مصر أنّ داء الزهري يأتي أحياناً من الفزع والرعب، وقد لاحظ أحد الأطباء أنّ جرحى الجيش القاهر أقوى على احتمال آلام جراحهم من جرحى الجيش المقهور.

وكان أحد كبار الأطباء إذا أتوه بمريض سأله أولاً عمّا إذا كان اعتراه مرّة خوف، أو ضيق شديد، فيستعين بمعرفة ذلك على علاجه.

فأنت ترى أن ألام النفس أفتك بالأرواح من ألام الجسم، ولو علمت عدد الذين يقتلهم اليأس، والهم، والوجد والغرام، وداء الحنين إلى الوطن، في كل زمان ومكان، لأيقنت أن الخطب من ألم النفس عظيم.

ومن الحوادث التي تروى لبيان تأثير سلطان الخوف والوهم في النفس، حتى يصل بها إلى الهلاك، ما حكاه أحد المعلمين في مستشفيات لوندرة من أن جماعة من طلبة المدارس أرادوا أن يسخروا من رجل كانوا يبغضونه في المدرسة، فعمدوا إلى حجرة مظلمة في المدرسة ووضعوا في ركن منها حطباً للوقود، ووضعوا بجانبه فأساً محددة، وجلس في صدرها بعض الطلبة متشحين بالأردية السوداء التي تلبس في مجالس القضاء، ثم أدخلوا الرجل إلى الحجرة، وأخبروه أنّهم اجتمعوا لمحاكمته، وأنّهم أعدّوا الحطب للإحراق، والفأس للإعدام، فظنّ الرجل في أول الأمر أنّهم يمزحون معه، ولكن ما زالوا يؤكدون له أنّ الأمر جد وأن القضاة يبحثون الآن فيما يستحق من العقاب، فوجل الرجل وجلا شديداً، ونطق القضاة بحكم الإعدام، وبتنفيذه في الحال، وتقدّم الجلاد والفأس في يده وباشر آخر عصب عينيه بعصابة، ثم كتفوه وأركعوه إلى الأرض وعند صدور الأمر بالتنفيذ لفّ أحد الطلبة قطعة من النسيج مبتلة بالماء فلمس

بها قفاه يحاكي بها لمسة الفأس، فتوهم الرجل أنّ القتل وقع عليه فارتمى على الأرض لا حراك به، فكشفوا عن عينيه الغطاء وأخذوا بيديه ليرفعوه فإذا به قد مات فعلاً من شدّة الرعب والخوف.

ومنها أن جماعة من أطباء روما، أرادوا أن يشاهدوا بأنفسهم تأثير الخوف، فطلبوا من الحكومة أن تسلّم لهم في أحد المحكوم عليهم بالإعدام ليجربوه فيه، فدفعت إليهم أحد الجناة فأخذوه وأعلموه أنّهم استنزلوا الحكومة عن إعدامه بالخنق إلى إعدامه بفصد العروق ونزيف الدم، ليدرسوا عليه بعض الشؤون الطبية، وساروا به إلى أحد المستشفيات حيث اجتمع خلق كثير من الطلبة والمعلمين، ووضعوا العصابة على عينيه وأصعدوه بعض الدرج، ثم أدخلوه حجرة الغسيل ووضعوه بجانب حنفية ثم شمّروا أكمامه وأوهموه أنّهم سيبدأون بالفصد، ومسّ أحدهم بمبضعه ذراع الرجل مساً خفيفاً، وأرسل آخر منهم فوهة الحنفية فسال منها الماء بخريره، فما زال الماء يسيل، وقوي الرجل تنحل شيئاً فشيئاً، لاعتقاده أنّ الماء الذي يسيل هو دم النزيف حتى وقع ميتاً.

وكما يمرض الجسم بالوهم، كذلك يصحّ بالوهم، ومن آية صحة ذلك أنّه كان في أحد المستشفيات امرأة مصابة بداء الصرع، فإذا اعترتها نوبته، أذابت القلوب من التألم والأنين،

فيحقنها الطبيب بالمرفين لتسكين الألم. وحضرتها النوبة ذات ليلة فقام الطبيب إلى صندوق الأدوية ليأخذ المرفين فوجده قد نفد، واشتدت الآلام بالمرأة حتى أقلق صراخها جماعة المرضى، وزاد في آلامهم فلم يجد الطبيب من حيلة أمامه إلاّ أن ملأ زجاجة الحقنة بالماء مكان المرفين وقصد المرأة فحقنها كالعادة، فسكنت في الحال، وأثّر الماء في أعصابها تأثير المرفين. بمجرد الوهم، وممّا يروى أيضاً في هذا الباب، أنّ أحد المصابين بداء الصدر كان نائماً مع صاحب له في غرفة نومه، فقام صارخاً في آخر الليل وقد انطفأ السراج، يشكو ضيق النفس، وينادي صاحبه من منامه، متخبطاً في الظلام، متحيراً في الغرفة، يتلمس الحائط بيديه، حتى ظن أنّه عثر على مكان النافذة، فأخذ يعالج فتح زجاجها فاستعصى عليه فضربه بقبضة يده فكسره، فتنفّس المريض مرتاحاً وذهب عنه ما كان به من ضيق التنفّس، وعاد كل منهما إلى نومه، فلمّا استيقظا في الصباح وجد زجاج النافذة سليماً مغلقاً، وتبين لهما أنّ الزجاج الذي انكسر في الليل وتنفّس المصدور بكسره، هو زجاج خزانة الكتب وما استنشق المريض إلاّ هواء موهوماً.

وقصارى القول إن حوادث الخوف والوهم وتأثيرهما في النفوس شائعة كثيرة، ومن استسلم لهما لم يلبث أن يصاب

جسمه بالأوجاع والأوصاب من تأثيرهما، فإذا مرض الجسم مرضت النفس بمرضه، فيقع الإنسان في الدور والتسلسل، وإذا مرضت النفس بالوهم والخوف أثرت في الجسم فيضعف وتنتابه الأمراض، فيزيد في ضعف النفس وأمراضها وأشدّها الأكدار والأحزان.

فإذا أنت أخذت في جسمك بقانون الصحة كما قدمنا، وعالجت نفسك وعودتها دقة النظر، وحسن البصر، وصحة القياس، ومعرفة حقائق الأشياء، وحلّت بينها وبين التدرج في الهواجس والوساوس، وأبعدت بها عن الاستسلام للأوهام والأخيلة. وتذكرت الموت في كل حين، لا للخوف منه، ولكن للأستئناس به حتى تصل إلى أن تحدق في وجهه لا أن تغمض عنه، وأن تعتقد فيه أنّه شفاء الأسقام وختام الأوجاع، وسبيل النجاة، وأنّه هادم الآلام، لا هادم اللذات، وأنّه واقع لا محالة، وأن أوان حلوله مخبوء مجهول، وأنّه بمقربة منك في كل لحظة، وعند كل لفتة، هانت عليك الدنيا، وصغرت في عينيك، ولم تحفل بنزول النوازل، وهبوط النوائب، ولم تتأثر من شرور الخلق، وتذكر دائماً عند كل خطب ينزل، قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ (الزمر: ٣٠) وكن فيهم مثل ذلك الحكيم الذي مثل أمام قضاته، ليحاكموه ظلماً على إنكاره لعبادة الأوثان، فلما قضوا عليه بالموت قال لهم: «وأنا أيضاً قد قضيت عليكم بالموت».

نعم إنّك إن أخذت بهذه الوسيلة في معالجة النفس، وتدرجت في استعمالها سلم جسمك من الأمراض والأوصاب، وسلمت نفسك من الهموم والأكدار، وقضيت عيش الحياة في صفاء إلى أن يحل الأجل، «ووجهك وضاح وثغرك باسم» وتلك هي السعادة في الحياة الدنيا.

المعــروف

إنّ أكثر ما تتألم به النفوس، وتتوالى منه الشكوى، كفران النعمة ونكران الجميل، وضياع المعروف ومقابلة الإحسان بالإساءة والخير بالشر.

ولو تأمل الإنسان في انتشار هذه الشكوى بين الناس واستدامتهم عليها، لكاد يحكم بأن الإنسان شرير بالطبع، وأنّه مجبول على السوء، وليس الأمر على ذلك، وإنّما الأصل فيه أنّنا لا نعرف كيف نسدي المعروف ولا نعرف كيف نتقبله التقبل الخليق به، فإنّ المعروف إذا وضع في غير موضعه، أنتج الكفران، فإذا أنتج إحسانا كنودا، فلا حق لنا في الشكوى، لأنّنا أضعنا المعروف منذ وضعناه، ولا محل للاستغراب من أن رذيلة الكنود والكفران، منتشرة انتشاراً عظيماً بين الناس أكثر من انتشار بقية الرذائل، لأنّ لذلك عدّة أسباب، أخصّها سوء التبصّر في اختيار من نضع معروفنا عنده، ومن الغريب أنّنا نأخذ بالحيطة إذا أردنا أن نقرض إنساناً شيئاً من الدراهم، فنبحث وننقب عمّا يملك من متاع وعقار، لنأمن على أموالنا من الضياع، ولا نحتاط أدنى

احتياط إذا أردنا أن نسدي معروفاً، أو أن نصنع جميلا. والمعروف وإن كان يشابه الدين إلاّ أنّه يختلف عنه بأنّ الوفاء لا يكون عن مطالبة وتقاض بل عن رضا خاطر، وطيب نفس، فلا تليق فيه الشكوى من تأخّر المدين، لأنّ هذا الدين لا يوفي من أدراج الصناديق ولكن يوفى من ثنيات القلوب، ويكفي في وفائه الاعتراف به، وليس إنكار الجميل بأقل عاباً، وأعظم عاراً، من المطالبة بالجزاء عليه.

وإذا كان المسدي إليه يستحق اللوم لنكرانه الجميل، فهل يسلم المسدي من اللوم أيضاً؟ كلا. فإن في طريقة الإعطاء في بعض الأحيان إغراء وتحريضاً على الكفران، فتارة يظهر علينا الامتعاض والتكره عند صنع المعروف، وتارة نذكر المسدي إليه بل نطالبه برد المعروف، والربا عليه، وتارة يعترينا الندم بعد إسدائه ونخالط المسدي إليه بوجه غير مرضي، ونظر مشوب بالاعتلاء، فيتكدر الصفاء، وتنقبض النفس، فنحن الذين نميت الشكران بأيدينا، ونبعث النكران بعد إسداء المعروف، بل إبان إسدائه. ومن منّا الذي أجاب القاصد لأول سؤال، وأعطى الملتمس لأول رجاء؟ ومن منّا لم يقطب جبينه، ويلو عنقه، ويتعلل بكثرة أشغاله، ويطاول في الحديث حتى لا تكون فرصة لصاحب الحاجة أن يكاشف بحاجته؟ ومن منا لم يتدبر الحيل للتخلص منه كأن يستقدم

إلى مجلسه من يخجل الطالب منه أن يبوح بطلبته أمامه مثلاً، حتى إذا ضاقت الحيل، ولم يكن بد من سماع الطلب، فأمّا أن نجيب بالوعد أولاً، وهو نوع من الرفض، وإمّا أن نعطي مع التعبيس، والتقطيب، والكره، والتأفف. فكيف ننتظر بعد هذا شكراناً خالصاً وقد أخذ صاحب الحاجة ما أخذه منّا انتزاعاً واغتصاباً لا إسداء وإعطاء؟ وأي جميل يكون لك عنده إذا رميت له ما رميت في يده من علياء كبريائك، أو رميته له للتخلص من الطلب وأنت واجم، ثم تؤمل الشكران بعد ذلك! وكيف ترجو جزيل الشكران على سوء الإعطاء؟ إنّما يأتي الشكر من حسن الطريقة التي يسدي بها المعروف ولو كان ضئيلاً، فكيفية الإعطاء هي التي عليها المعوّل هنا، وقد قيل حسن الإعطاء خير من قيمة العطية. فإذا أردت أن تولد الشكران فلا بد أن تظهر نيتك الخالصة في محبة الإسداء، ولا تنقص من قدره بالمواعيد، ولا تصحبه بعلامات ظاهرة من المن تسوء النفس، وقد جبلت طبيعة الإنسان على سرعة التأثر بالإساءة أكثر من الإحسان، ونسيان الخير أكثر من نسيان الشر، فلا تنتظر شكراً وقد أسأت في كيفية الإحسان، ويكفيك من المسدي إليه أن ينسى سوء المعاملة في إحسانك إليه وألاّ يحقد عليك.

ومع هذا كله فإن كثرة أهل الجحود والكنود، لا توجب

تثبيط همّتنا، ولا تحول وجوهنا عن إسداء المعروف، وكفران نعمة الله لم تغير من نعمته علينا، وما زالت نعمته تتناول الشاكر والكافر. وإنّا لنستحق خيبة الرجاء في الشكر إذا كنّا أعطينا ما أعطيناه على نية انتظار الجزاء والمكافأة عليه.

كما أنّنا لا ينبغي أن نمتنع عن المعروف إذا تكررت لنا منه حوادث الكفران والكنود، فكثيراً ما خاب ظن المرء في امرأته وولده، فما منعه ذلك من معاودة الزواج وتربية الأولاد، وإشرافنا على الغرق مرة لا يمنعنا من ركوب البحر مرة أخرى، والنكوص عن صنع الجميل بدعوى عدم المكافأة عليه، يدل على التطلّع إلى استجلاب الفائدة من ورائه، وعلى ذلك يكون ما أعطيناه كالقرض ننتظر معه الوفاء، وفي هذا ما يتخذه كافر النعمة تعلة يتعلل بها، وحجة يحتج بها ليفرّ من خجل الكفران، ولا يكون كفران النعمة وصمة عار إلاّ إذا تركت المسدى إليه مخيّراً في الشكر لا مغصوباً عليه ولا مندوباً إليه.

ومن أكبر الإمارات على النفوس العظيمة الكريمة أنّك تراها تفعل الخير لمجرد حب الخير. ومن الآيات الحكيمة التي يجب أن يأخذ المحسنون بأدبها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ (الإنسان: ٩) ومن أجلّ هذه الإمارات في تلك النفوس أن كثرة أهل الكفران لا يثنيها

عن معاودة إسداء المعروف، فالكريم لا يبالي كفر الناس نعمته أم شكروها، ويكفيه أن يستمرئ حلاوة الصنيعة حين إسدائها، وهي اللذة التي يطرفه بها الإسداء، وقد قال الشاعر في ممدوحه:

لـو كـفـر الـعـالـمـون نـعـمـتـه

لـمـا عـدت نـفـسـه سـجـايـاهـا

فهو يصنع الجميل ولو كان يعتقد أنّه ليس في العالم قلب شكور، ويؤثر أن يضيع إحسانه سدى على الانقباض، عن إسداء الإحسان، والامتناع عن فعل الخير بعلة الحكم على القلوب، بانطوائها على الكفران، مسابقة للكنود، ومشاركة له في لؤمه، وإذا كان ذنب الكنود عظيماً، فإنّ ذنب الممتنع المتعلل على هذا الوجه أعظم منه. ومن ظنّ أنّ الكريم يخسر معروفه فقد أخطأ، لأنّ لفظ الخسارة يشير إلى معنى انتظار الربح، وليس إسداء المعروف من باب التجارة ولا من حساب الدخل والخرج، وما له إلا باب واحد وهو باب الخروج والإنفاق، فإن دخل فيه شيء من الشكران كان ذلك ربحاً، وإن لم يدخل فيه منه شيء فلا خسارة فيه. إذن، فلا يجوز لمحسن أن يقول يوماً خسرت الجميل وقد استمرأ لذته عند الإسداء.

ومن آداب إسداء المعروف أن يسدل المسدي دونه ستراً

من النسيان يبقى المعروف وراءه مستوراً حتى تكشف عنه يد الشكر من المسدى إليه.

والمعروف، رأس مال، طرحه في يد الكنود خير من حبسه في يد المحسن، لجواز أن يربو بالشكر في نفس الكنود يوماً من الأيام، على مرور الزمن، ولا يبعد عليه أن يتعلم منه حسن المثال في إسداء الصنيعة.

ولا يقتصر إسداء المعروف على بذل المال بل يتناول المال، والجاه، والسلطان، والنصح، والإرشاد، وحسن المعاملة.

وليس الإنسان وحده هو الذي يدرك معنى حسن المعاملة، بل الحيوان الكاشر، والأسد الضاري، إذا عودته الحسنى انتهى به الأمر إلى الاستئناس والخضوع.

ولا شيء أقتل للكفران في النفوس، من المواظبة على دوام الإحسان، فمن أسدى معروفاً ولم يشكر عليه، في المرة الأولى، فلا يبعد أن يشكر عليه في المرة الثانية، فإذا قاوم الكفران الإحسان مرتين، فعليك أن تعززهما بثالثة تذكر المسدي إليه بالإثنتين.

ولنبحث الآن في ماهية المعروف وتقدير قيمته. فالشائع بين الناس أنّ كلّ إنسان منهم لا يعتبر نفسه مديناً لك بالشكر

إلاّ بمقدار ما أسديته إليه. فمنهم من يقدر معروفك عنده بمقدار ما نقدته من المال، ومنهم من يقدوه بمقدار الوظيفة التي سعيت له في الوصول إليها، ومنهم من يقدره بمقدار الخطر الذي أنقذته منه، بمعنى أنّك لو أعطيت صاحبك مائة درهم، كان شكرانه لك على قدرها، ولو أعطيته مائتين كان شكره على حسب العدد، ولهمّ جرّاً! فقيمة الجميل ترتفع وتنخفض، بارتفاع الأعداد وانخفاضها! وذلك من الخطأ بمكان عظيم. فإنّ العطايا، والهدايا، والصلات، والمساعي، إنّما هي علامات، ظاهرة تدل على المعروف، وليست هي المعروف بذاته، لأنّ المعروف لا يحسّ بالنظر، ولا يمسّ باليد، ولا يدخل في الكيس، وإنّما هو ما يدخل في القلب، ولا يقدر قدره إلاّ ضمير الإنسان، والفرق عظيم بين السعي الذي تسعاه لصاحبك، وبين الحاجة التي تسعى له فيها، فلا الذهب، ولا الفضة، هما المكنونان للمعروف في الحقيقة، ولكن نيّة الفاعل للخير عند فعله. وهذا هو الذي يجب تقديره في النفس، وإسداء الشكر عليه، وهنا لا يقال في القليل إنّه قليل، ولا في الكثير إنّه كثير، وإن كان الناس لا يأخذون إلاّ بالظواهر ولا يلتفتون إلاّ إلى مقدار ما يعطي وما يؤخذ، جاهلين قيمة المعروف في ذاته، وغاب عنهم أنّ هذه الأمور التي تتطلع لها أنظارنا، وتمتد إليها أيدينا، ليست إلاّ حطاماً فانيا، وعارية متنقلة تنتزعها من أيدينا صروف الدهر،

وتغلبنا عليها نوازل الخطوب، ولكن يد الدهر لا تقوى على أن تمحو ما سطر في الصدور من إسداء المعروف، بل هو ثابت فيها أبداً، وأثره باق على الدوام. ولو فرضنا أنّك أنقذت صاحبك يوماً من قطاع الطريق ثم عادوا فاختطفوه في اليوم الثاني، فإنّهم لا يختطفون معه معروفك وإنّما سلبوه التمتع به، ولو نجّيت أولاد جارك من الحريق أو الغرق ثم نزل بهم بعد ذلك مرض أودى بهم، فإنّ المعروف لا يزال ثابتاً في ضمير الوالد. فكل ما نأتيه من أعمال الخير والصلاح، ونسميه بالمعروف والجميل، والإحسان، إنّما هو أكمام تتفتق عن حسن النية في الميل، والعطف كما أن الأوسمة وشارات الرتب لا تؤدي بذاتها ما يفهمه الناس منها، وإنّما قيمتها في نية التشريف بها. ولذلك تجد الفرق عظيماً بين الرتبة التي يسديها الملك من نفسه على نية التشريف، وبين الرتبة التي تؤخذ منه بالوسائط، لأنّه ينقصها نية التشريف بالذات وهذه هي المقصودة من جميع تلك العلامات المعروفة بالنياشين والأوسمة وزخرف الملابس.

فتعريف المعروف إذن، هو الفعل الذي يصدر من تلقاء النفس، لمجرد الرغبة في الخير، ويستمد مسديه لذته من اللذة التي يشعر بها المسدي إليه. فالنية هي التي تقوم الأشياء وتقدرها قدرها، كما قال عليه الصلاة والسلام: «إنّما الأعمال

بالنيات» فرب صغير من الإحسان يكون كبيراً بصفاء النية فيه، ورب صلة عظيمة يحط من قدرها كدر النية فيها، وهنا يقال: «نية المرء خير من عمله».

أمّا إذا اعتبرنا أن قيمة المعروف هي قيمة العطية، وليس للنية دخل في ذلك، كان الشكر حينئذ على قدر العطية مع أنّ الأمر بالعكس، فيجوز أن يكون ما تعطيه شيئاً قليلاً ويكون الشكر عليه عظيماً، ويجوز أن يكون صاحب المعروف فقيراً، ولكن حالته عند الإعطاء تجعل عطيته مثل مواهب الملوك في القدر والشأن.

وقد اختلف الناس في تعريف الكريم، وإنّما الكريم هو الذي ينسى ما هو فيه من الاحتياج عند رؤية المحتاج، وهو الذي يكون مغرماً بالإعطاء في كل وقت من الأوقات، وهو الذي يرى نفسه كأنّه الآخذ والآخذ منه كأنه المعطي له، كما قال الشاعر:

تراه إذا ما جئته متهللاً

كأنّك تعطيه الذي أنت سائله

وهو الذي إذا رددت إليه معروفه نسي أنّ له عندك معروفاً، وعده يداً لك عليه، وهو الذي لا ينتظر أن يأتيه صاحب الحاجة بل يسعى في البحث عنه، ومن كان على خلاف ذلك فهو تاجر مراب تأخذ منه المعروف أخذك الدين

من الغريم، أمّا الذي يعطي للسمعة، والرياء، والشهرة بالإحسان، فإنّك إن أخذت منه شيئاً فحسابه على تلك الفخفخة وليس عليك من حسابه من شيء.

كان من عادة «سقراط» أن يقبل الهدايا من تلاميذه كل على قدر ثروته، فجاء الدور يوماً على تلميذه «ايشين» وكان فقيراً فتقدم إلى أستاذه وقال له ليس عندي ما أقدمه بين يديك ممّا يليق بقدرك، وهذا الموقف اليوم وحده هو الذي أذكرني فقري وأشعرني به، فأنا أقدم إليك كلّ ما أملكه وهو نفسي، فلا تحتقر هذه الهدية بما هي عليه، واعلم أنّه إن كان غيري أهدى إليك كثيراً فقد أبقى لنفسه أكثر ممّا أعطى «فقال له «سقراط» وكيف تزعم أنّك أهديت إليّ شيئاً قليلاً إن لم تكن نفسك عندك كذلك، فقد وجب عليّ إذن أن أتقبلها، وأعني بها عناية خاصة حتى أردها إليك بعد تثقيف العلم أحسن ممّا أخذتها منك». ففاق التلميذ بهديته هذه جميع أقرانه، وعلا عليهم في المنزلة عند أستاذه الذي قدر نيته حق قدرها، فوفي به بشكرها، فقد تبين لك من ذلك أنّ الإنسان يكون أكبر المحسنين وهو أفقر الفقراء، وإن كيفية الإعطاء، تعلو على كمية العطاء.

وكيفية الإعطاء هي أن تبدأ بإعطاء الضروري، ثم النافع، ثم ما يكون للتجمّل والتنعّم، أمّا الضروري فهو الذي يقوم

بحفظ الحياة وموقعه في القلوب أعظم ممّا يأتي للنفع والتجمّل. فقد يجد الإنسان مندوحة عن ذلك التجمّل والتنعّم ويستغني عن احتمال عبء الشكر عليه.

والضروريات تنقسم إلى ثلاثة أقسام، أولها ما لا يقدر الإنسان أن يعيش بدونه، وثانيها ما لا ينبغي للإنسان أن يعيش بدونه، وثالثها ما لا يرضى الإنسان أن يعيش بدونه، فيدخل فيه الإنقاذ من المهالك، وإشراك العداوات، وانتقام الظلمة، وصنوف الأذى، وكلّما عظم الخطر الذي تذوده عن صاحبك، كان الشكر عظيماً على قدره، فإن الإنسان إذا سلم من خطر، كان على وشك الوقوع فيه، بقيت في نفسه صورته على أبلغ تمثيل، وكلّما تمثل للنفس الناجية ما كان ملماً بها من الهلع والجزع وخوف المكروه، زاد ذلك في جمال الصنيعة، وبهاء المعروف عندها، فتزداد شكراً، ولا ينبغي لصانع المعروف أن ينتظر بصاحبه اشتداد الخطر عليه لإنقاذه ابتغاء المبالغة في قيمة الصنيعة ليكون عظم الشكر بقدر جسامة الخطب، فإنّ ذلك ممّا تترفع عنه أريحية الكريم وإلاّ فقد دخل الأمر في باب المتاجرة والمرابحة.

والقسم الثاني يدخل فيه كل ما يمكن الإنسان أن يحيا بدونه حياة يفضلها الموت، وهو فقدان الحرية والشرف والفضيلة.

والقسم الثالث يدخل فيه شهوة النفس في زينة الحياة الدنيا من الأموال، والمقتنيات، وكل ما تتطلع إليه النفس ويعزّ عليها فقده.

ويلتحق بذلك ما كان من الأشياء النافعة التي لا تكاد تحصى كالمال بمقدار لا يفضل عن الحاجة، وكسدّ الرغبات المحدودة ممّا لا يدعو إلى التبذير والإسراف، وكالجاه المنصب، ويلتحق به أيضاً ما لا يعدّ من أسباب التجمّل والتنعّم. ومزية المعروف هنا أحكام مناسبته فإذا أردت إسداء المعروف في هذا الباب فليكن ما تعطيه عزيزاً غير مبتذل، أو نادر الوجود في زمانه، أو نادر المثال في زماننا، فإن لم يكن نفيساً في ذاته، أعاره الزمان والمكان من النفاسة ما كان ينقصه من قبل. فعليك بإعطاء ما يجمل وقعه في النفس، ويبهر في النظر، ليكون ذكرى الصنيعة من المسدى إليه مقروناً بالإعجاب بما أهديته إليه.

ويجب عليك ألاّ تخطئ مواقع الهدية التي تهديها، كأن تهدي آلات الصيد والقنص إلى شيخ ضعيف، أو أن تهدي كتاباً إلى رجل أمّيّ أو لعبة إلى عالم فقيه.

كما أنّه يجب المحاذرة من أن تهدي ما يظن فيه التعريض والتقريع، كأن تهدي زقاً من الخمر إلى مدمن للشرب، أو أزلام ميسّر إلى مدمن للقمار، ففي ذلك تعريض بالمهدى إليه يذهب بالصنيعة بل يثير الضغن.

ومن حسن الكيفية في الإعطاء أن نعطي على الطريقة التي نريد أن يعطينا الغير بها، وأن يكون الإعطاء مشفوعاً بما يدل على طيب الخاطر ورضا النفس، مقروناً بالمبادرة إليه منزهاً عن التباطؤ، فإن كان هناك ما يلجئ إلى الريث وجب أن يكون مصحوباً بما يدفع عنه تهمة التردّد. فإن التردد أخو الرفض، ولا يستحق الشكر عليه.

وقد قدمنا أنّ المزية في صنع المعروف هي في النية على عمله، فإذا وقعت المماطلة في الإعطاء فكأنّما وقع منّا الرفض بعينه. وفي هذه الحالة نكون قد أعطينا على كره، ومن الناس من يكون عطاؤه لحيائه وخجله أن يقابل الطالب بالرفض، وليس هذا من باب الكرم في شيء، وحلاوة المعروف في المسارعة مع الطلاقة والبشاشة، والإجابة قبل السؤال أولى وأجمل في باب المعروف، فتوفر على الطالب مضاضة الرجاء، وذل السؤال، فإنّ صاحب الحاجة لا يسأل حاجته إلاّ وهو في حيرة وتردّد يترقرق في وجهه ماء الحياء، فإذا كفيته مؤونة السؤال ضاعفت قيمة المعروف. ولا يكون النوال نوالاً محموداً إذا هو جاء من طريق الطلب والسؤال، فإنّ أغلى الأشياء قيمة ما أرقت في سبيله ماء المحيّا، وأخلقت فيه أديم الوجه:

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله
بدلاً وإن نال الغنى بسؤال

وإذا السؤال مع النوال وزنته

رجح السؤال وخفّ كل نوال

وما نكس الرأس سائل وتعلثم لسانه. إلاّ لشعوره بذل موقفه ومهما عجلت بالعطاء بعد السؤال فإنّك لا تبرأ من نسبة التقاعد عن معونة صاحبك حتى أكرهته على مرارة السؤال، ومن الواجب أن تحسّ حاجته وهي في نفسه قبل أن يكاشفك بها، حتى إذا أدركت حاجته وهي في خفائها أزلت ما به من مضاضة التردّد بين الأقدام والأحجام. فإذا سبقك إلى السؤال، فعليك بقطع كلامه كراهة أن تطيل عليه ذلك الموقف، موقف الاستعطاء والاستجداء، وبادر ما استطعت إلى إجابة سؤاله بحالة يشعر منها مسابقة ضميرك إلى إسداء المعروف.

وكما أن مبادرتك بإعطاء المريض الشيء الزهيد من الزاد والماء عند الحاجة تقوم مقام العلاج النافع، فكذلك القليل العاجل الذي تعطيه لصاحبك لتكشف عنه عوزه يكون خيراً من الكثير الآجل الي يتخلله التباطؤ والتردّد.

وعليك أن تضم إلى بشاشة الوجه وارتياح النفس عند إسداء المعروف، لطف العتاب لصاحبك لتقاعده عن قصدك إلى هذا الحين، كأن تقول له «إنّني لا أغفر لك تردّدك وتقاعدك عن طلب حاجتك، كما أنّني أشكرك على أن

خصصتني بها من دون أصحابك لحسن ظنّك بي، وثقتك بحسن مودتي. واعلم أنّني منذ اليوم رهين أمرك فيما تكلفني إياه من خدمة، ولقد سامحتك في استتارك مني بستار الخجل والحياء عند الطلب في هذه المرة» فإنّك إن فعلت ذلك، زدت في مقدار الصنيعة، وأسّست في قلب صاحبك ركناً من الشكر والحمد، لا يهدمه النسيان، ولا يودي به مرور الزمان. ومن أكبر الأسباب التي تذهب برونق المعروف، بل تدعو إلى الجحود والكفران، كثرة الوعد، وطول التسويف. ومن الناس من يقصد ذلك، ويتعمده للتباهي بتردّد القصاد عليه، وإقامة الوفود ببابه. كأنّما فعل الخير عنده، سلطان لديه، يتمتع بمظاهر أبهته، وجلاله، أمام حاشيته وأتباعه. ولا حق لمثل هؤلاء في الشكر على الصنيعة، بل هم الذين يلجئون الناس بهذه الأفعال إلى الكفران، لأن كل ما يدخل في حساب الوعد والمطل، يخرج من حساب الشكر والاعتراف بالمعروف وربّما أدّى طول الانتظار، وكثرة الوعود، إلى البغض والحقد في نفس صاحب الحاجة. وكما أنّه أفظع أسباب الوحشية، وأبلغ القسوة، تطويل مدّة الإيلام للمقدم للقتل، وأن المرحمة والإنسانية في الإجهاز عليه والتعجيل به، لا في الإبطاء والتطويل، وأنّ المدّة التي تسبق الإجهاز هي الألم كله، فكذلك انتظار المعروف مدّة الوعود من أعظم ما تتألم له نفس السائل. وليس يفي فيها الإحسان

أبداً بقدر تلك الإساءة. وقد جهل المكثرون من الوعد بالإحسان أن توالى تراكم هذه الوعود، يؤسّس في نفس الطالب حقاً وتجعله في منزلة صاحب الحق، الذي يجب قضاؤه، فلا معروف ولا شكر، ولما كان إسداء المعروف علاجاً لداء الاحتياج، فالمماطلة فيه مدرجة إلى استفحال الداء، وقلّة نفع الدواء. ومن الناس من يجري في إسداء المعروف على طريقة التقطع والتجزئة، فلا يعطي صاحبه ما يريد إعطاءه إلاّ نجوماً في أحيان متفاوتة، فلا تجزئ صاحب الحاجة في سد حاجته التي قصده من أجلها في وقتها، ولا ينتفع فيها بما ناله أجزاء، بل يبقى في شدّة حاجته وإن ظنّ صاحبه أنّه سدّها، والقليل مع التعجيل، ادّعى إلى الشكر من الكثير مع التأجيل، ومنهم من لا يصنع المعروف ويسدي الإحسان، إلاّ إذا أصحبه اللوم، والتعنيف، ومرارة النصح، وسوء التبكيت، فيكون معروفه مكروهاً ممقوتاً كالجوهرة، حفت بها الأفاعي، وكالزهرة تشول حولها العقارب، طلب بعض المقاربين من أحد الملوك صلة يوفي بها ديونه فأمره الملك أن يقدم له جريدة بأسماء غرمائه، ثم جمعهم أمامه، ووقع على جريدة أسمائهم بأنّه أحسن بذلك المبلغ المطلوب على فلان السفيه المبذر (يعني صاحب الحاجة) لا يفاء كل ذي حق حقه من أرباب الدين، فخلص الملك بهذا العمل صاحب الحاجة من ثقل الدين، ومن واجب الشكر في آن

واحد، ومثل هذا لا يقال له معروف ولا جميل، وإنّما هو تشهير وتعبير.

وإسداء المعروف ينقسم أيضاً إلى قسمين، قسم عام يقتضي الجهر والإعلان له، وقسم خاص لا ينبغي له غير الإخفاء والكتمان. فمن القسم الأول ما يكون المجد في إعلانه والشرف، مثل صدقات الفرائض، وغنائم الجيوش، ومكافأة الملوك على الأعمال الصالحة بعلامات الشرف، وماه يشابهها مما يزيد الجهر بها والإعلان لها قيمتها، قال الله تعالى ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٧١) وقال ابن عباس رضي الله عنه «صدقات السر في التطوع تفضل علانيتها سبعين ضعفاً وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بسبعين ضعفاً».

والقسم الثاني هو الذي لا تكون العطايا فيه من شأنها ارتفاع القدر، وازدياد الشرف، بل من شأنها سد الحاجة، ودفع العوز، ومداركة الافتضاح، وهذا يجب فيه الكتمان وجوباً محتماً، وألاّ يعلم بالصنيع أحد سوى المقصود بها وحده. وبعضهم يذهب إلى أن جمال الصنيعة لا يتم إلا بكتمانه عن نفس المسدى إليه أيضاً، ولذلك فإن كثيراً من ذوي المروءات يعمدون إلى طرق الاحتيال في وجوه صلتهم

لأصحابهم حتى يخف عليهم احتمالها. ومن أجمل المدح في هذا الباب قولهم: «فلان لا تعرف شماله ما أعطته يمينه».

فإن قلت إن جهل المسدى إليه باسم صاحب الصنيعة معه مما لا يجعل لها حلاوة في نفس مسديها بل يحرمه من التمتع لشعور نفس صاحبه بمعروفه وانتظار الشكر منه عليه قلنا إن هذا الكتمان واجب لإتمام المعروف في الحالات التي يكون فيها إسداؤه ممّا يحدث في نفس المسدى إليه مرارة الخجل والحياء. وهناك فرص أخرى يوالي فيها صاحب المعروف معروفه فيها فتقوم موالاة المعروف بتعريفه لصاحبه ويدرك ما سبق بما لحق.

وفي الناس جانب عظيم يتبع معروفه بطول المنّ والتذكير به، وهؤلاء هم أسوأ أهل المعروف والإحسان عملاً، وأقبحهم فعلاً، وأشدهم على النفوس ألماً وكرباً، وأولاهم بالكراهة والحقد عليهم، بدل الشكر والإمتنان. وكفى بهذا الخلق السيء شناعة وفظاعة، ما ورد فيه من الآيات المتعددة في الكتاب الكريم فمنها قوله عزّ وجل: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦١ ـ ٢٦٣) وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًاۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٦٤) ومن نوابغ الكلم قولهم: «صنوان من منح سائله ومنّ، ومن منع نائله وضنّ». ومن قول الشاعر:

وإن امرأ أسدى إليّ صنيعة

وذكرنيها مرّة للئيم

وطالما وصل المنّ والتذكير بالمسدى إليه أن يتخلص منه بأي طريقة كانت ولو بإلقاء نفسه في المكروه، غضب بعض الملوك على أحد حاشيته، وعزم على نفيه أو قتله، فشفع فيه بعض المقربين واستنقذه من ذلك الخطب الهائل، ولكن ما برح بعد ذلك يمنّ على الرجل بمعروفه، ويذكره جميله، في كلّ زمان ومكان، حتى ألجأه إلى تفضيل الوقوع فيما أنقذه منه على ترديد هذا المنّ فقال له يوماً: «قم فردّني إلى الملك فقد سئمت ما تكرره على من إنقاذك لي من النفي أو القتل، وتالله للوقوع في أحد المكروهين أهون علي من هذا المن، نعم إنّني أقرّ لك بالفضل والمعروف، إذ أنقذتني من الهلاك،

وأنعمت عليّ بالحياة، فليتك كنت تركت لي ذكري ذلك من نفسي، أمّا وقد جئت تذكرني به كما يذكر صاحب الدين غريمه بدينه فالموت الذي أنقذتني منه أحلى عندي من هذه الحياة التي وهبتها لي، ولقد تبين لي أنّه لم يدفعك إلى حسن صنيعك معي إلاّ حبّ الاشتهار به والتبجّح بفعله فاذهب فلا صنيعة لك عندي ولا حق لك في الشكر عليها». فمن أول شرط المعروف الي يستوجب الشكر ألاّ يذيعه صاحبه ولا يشيعه، فإنّ الإعلان له نوع من المطالبة بالتعويض عنه. ومن الواجب على صاحب المعروف أن يحبس لسانه عن ذكره، ولا يتشدّق به، بل يترك أمر إشاعته والتمدّح به إلى المسدى إليه فهو من شأنه وحده، إن شاء أشاعه، وإن شاء كتمه، وإلاّ فلا حق حينئذ لصاحب المعروف في الشكر على صنيعته لأنّه يكون قد استوفى أجره هو بذاته عند ذكره له بين الناس، ويكون قد دخل في صف ذلك الرجل الذي ما زال يمنّ على صاحبه بصنيعته حتى قال له ليس لك عندي صنيعة فقد وددتها عليك مرارا، قال له ومتى كان ذلك؟ فأجابه: «في كل مرةّ ذكرت للناس هذه الصنيعة وفي كل مكان أذعت فيه معروفك».

فضيلة الشفقة

الشفقة شكل من انجذاب النفس إلى النفس عند حدوث الألم لها، أو هي عبارة عن مشاركة الغير في الإحساس لألمه، وأثر من آثار الانفعالات الطبعية التي تثيرها مشاهدة التألّم في الغير. ومن مظاهرها المادية، فيض العيون بالدموع، إلاّ أنّها لا تلبث أن تخمد وتنطفئ إن لم يثبتها الإنسان في نفسه بالتصوّر والفكر، ولذلك ترى بعض الناس الذين تنقصهم قوّة التصوّر، وتدبّر الفكر، يشاهدون حلول الألم بإخوانهم ولا يتألمون لهم. فلا بد لاستكمال هذه الفضيلة في النفوس حينئذ من شرطين، حدّة التصوّر وكثرة التجارب، أمّا حدّة التصوّر فإنّها تجعل الإنسان أهلاً لأن يدرك انفعال الغير ويحسّ ألمه، بل يحل محله، في الإحساس للألم، وهو نوع من وحي النفوس بعضها إلى بعض حتى يصير قلب الإنسان كالمرآة ينطبع فيه ما ينزل بقلب صاحبه. وأما التجارب فلأنّها تمكن الإنسان من الإحاطة بمقدار الألم في الغير، ومعرفته له بما كابد من أمثاله وقاساه، ولا تتم المشاركة في التألم إلاّ بتذكّر ما وقع للإنسان

من أمثاله. ولذلك نجد أن من كان أقل الناس آلاماً وأحزاناً، يكون أبعد من سواه عن التوجّع لأحزان الغير. ولا يعظم إدراك الإنسان لآلام أخيه إلاّ بما جرّبه منها في نفسه. وقصارى القول آن نموّ الشفقة في النفس لا يكون إلاّ بمقدار قوّة الحافظة، لأنّ التجارب ليست إلاّ عبارة عن مجموعة من آثار ما مرّ على النفس مدخراً في حافظتها.

وتنتسب الشفقة أيضاً إلى الأثرة وحب النفس، فإذا شاهد الإنسان أخاه في الإنسانية على حالة التألم، أرجع البصر كرة إلى نفسه فأحسّ خلوها منه، وتجلّت له سلامتهما بجانب ألم صاحبه كما يحسّ من بالشاطئ بسلامته عند مشاهدة الغريق يغالب الأمواج، وهي تغوص به إلى قاع البحر. وفوق ذلك فإنّ النفس تخشى وتفزع أن تقع يوماً من الأيام، فيما وقع فيه الغير من الآلام، وتكون الشفقة هنا ناشئة عن توقّع حلول المكروه بنا كما وقع لأمثالنا، فنفرض أنفسنا على مثل حالة المتألم فتكون شفقتنا عليه في نفس الأمر إشفاقاً منّا على أنفسنا وبكاؤنا عليه بكاء على أنفسنا.

فأصل الشفقة يتركب من فرعين كما قدمنا، اشتغال الفكر بتصوّر الحال التي عليها الغير وما انطوت عليه نفسه من الأحزان والأكدار، والثاني اشتغال الحافظة بالبحث في ماضي الحوادث عمّا وقع لها من أشباه تلك الآلام. والنتيجة أنّنا

نتلبس بحالة الغير ونصطبغ بصبغته. هذه هي الشفقة في حقيقتها وكمالها، والفرق بين هذه الشفقة المستكملة بالفكر والبحث، وبين تلك الشفقة الطارئة التي تنشأ عن مجرد الانفعال النفساني لوقوع الغير في الألم، كالفرق ما بين العقل والغريزة وما بين الإرادة والشهوة وما بين القياس والشعور.

والشفقة وإن كان من أسبابها الأثرة وحب النفس كما ذكرناه، إلاّ أنّها في واقع الأمر تتغلب عليهما بما تدفع الإنسان إليه من وضع نفسه في موضع المتألم، ورضاه بقبول الألم الذي هو سالم منه وبعيد عنه، ومساواته نفسه بالمتألم، ومشاركته في التأثر بما يتأثر به سواه. وهي على هذه الصفة لتجردها عن الغرض الذاتي واجتلاب الألم إلى النفس حيث لا حاجة إليه، تعلو على بقية الأخلاق الفاضلة التي ترجع في الأصل إلى طلب الإنسان لمنفعته فيرتفع قدرها على سائر الفضائل بمقدار تنزّهها عن طلب المنفعة. والدليل على أن الشفقة من أفضل الفضائل طراً، أنّ الفضيلة إذا بالغ الإنسان فيها وأفرط، انتهى به طرفها إلى الرذيلة، كفضيلة الشجاعة ينتهي طرفها إلى التهور، وكفضيلة الحلم ينتهي طرفها إلى الجبن، إلاّ هذه الفضيلة فإنّك كلّما بالغت فيها وتطرفت تكامل بهاؤها وتجلّى جمالها. ومن أقصى ما يمدح به الرجل الفاضل أن يحسن إلى من أساء إليه، والشفقة في كمالها إن

تكاملت لا تفرق بين القريب والبعيد، ولا بين العدو والصديق، ولا تتناول من تألفه النفس وحده، بل تتناول من يخالفها وينافرها، إذ تزيل ما بين النفوس من الحجب وتعتبر الناس في تأثرهم بآلامهم على السواء.

ومن الدليل أيضاً على رفعة قدر هذه الفضيلة، ما تستبشعه وتستقبحه عند مشاهدتها للأفعال التي تتحقق فيها خلو الفاعل من تلك الفضيلة، فإذا رأيت أماً تجرع طفلها سماً زعافاً، لم تقل لأول وهلة كيف أقدمت هذه الأم على تلك الفعلة ولم تراقب عقاب الدنيا والآخرة، ولم تقل إنّها خالفت سنّة الوجود في العمل على بقاء النوع، ولم تقل كيف أخلت بتتميم وظيفتها التي قدرتها لها الطبيعة، بل تقول أول ما تقول كيف صار هذا القلب جماداً خالياً من الشفقة؟

وفضيلة الشفقة هي مصدر لكثير من الفضائل، وناهيك أن الفضيلتين اللتين هما جماع الخيرين بني الإنسان في الوجود، واللتين نوّه بهما الخالق عزّ وجلّ، ونبه خلقه إلى اتباعهما، وأخذ الناس بوجوب العمل بهما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ (النحل: ٩٠) متولدتان عن هذه الفضيلة، لأن الشفقة تكفنا عن مباشرة الأذى، وتحجبنا عن إيقاع الإيلام بالغير، فهي منبع العدل وذلك تعريفه، ثم أنها تبعث النفس على تخفيف الآلام عن

الناس، وتدعو إلى فعل الخير معهم، وهو اصل الإحسان وذلك تحديده، كما أنها تدعو إلى المساواة بين الناس في التألم لهم، وتقررها كما يقررها العقل، لأن من أصول الشفقة أن يضع الإنسان نفسه في منزلة غيره، ويحل في محله، ويعنى بأحوال الناس عنايته بأحوال نفسه، فيكره لهم ما يكره، ويحب لهم ما يحب، وهذا هو معنى المساواة في أكمل مظاهرها، وكل ما كان من معاني التكافل، والتضامن، والتعاضد، والتعاون، في الجمعية البشرية داخل تحت معنى الشفقة.

وكفاها رفعة بين الفضائل أنها تتجاوز بالإنسان دائرة العمل بها في الإنسانية، إلى دائرة العمل بها في الحيوانية، وليس في نظر الإنسان أبشع ولا افظع من إيقاع الألم بالحيوان، ولا يوجد في جميع الأعمال السيئة التي يأتيها الناس بعضهم مع بعض ويفعلها الإنسان بنفسه أقبح وأشنع من عدم التأثر مما يقع على الحيوان الأعجم من الألم. فإذا تبلد الناس وجمدوا، وأغفلوا هذه الفضيلة، وتقاعسوا عما تدعو إليه من فعل الخير والإحسان، ومعاونة إخوانهم في الإنسانية عند حلول الآلام بهم، ونزول المصائب عليهم، فإن منزلة إخوانهم لديهم تكون أدنى من منزلة الحيوان، ومنزلتهم هم في أنفسهم أدنى من منزلة الجماد.

الصيت والذكر

لرفعة القدر، وعلو الشأن، الذي ترغب فيه النفوس وتتجه نحوه المساعي طريقان، طريق الفضل القائم في النفس، وطريق الاتفاق في وقائع الأحوال، والتناسب في ظروف الزمان، أما الطريق الأول فهو صعب المرتقى، وعر المسالك عظيم الشقة، كثير التعب والنصب، كما تتبينه في ما يقاسيه أهل الطبقة المشتغلة في الناس بالعلوم والمعارف. وأما الطريق الثاني فهو ذلول المركب، سهل المنال، قريب المسافة، كما ترى الحال في أهل الغنى وذوي المناصب وأرباب الفتوحات.

والأعمال والآثار التي تقوم عليها رفعة القدر، وعلو الشأن، تجري في طريقين: طريق الخلود والبقاء، وطريق الزوال والفناء. وقد يبقى الذكر مع بقاء الأثر، وقد يزول الأثر مع بقاء الذكر. فالأعمال الخالدة مع بقاء الذكر، هي آثار المؤلفين والمصنفين، من العلماء والحكماء، فإنك لا تزال ترى إلى اليوم، «أرسطو» مثلاً، قائماً بيننا بكتبه يخاطبك بفكره، ويرشدك برأيه، وترى «ابن سينا» موجوداً بمصنفاته،

يلقي إليك بأقواله، ويفصح لك عن مذهبه، فكأنك تسمع بهما وتراهما في آن واحد، بعد أن تولت بشخصيهما القرون، وتراكمت على قبريهما الدهور. والأعمال البائدة مع الذكرى الباقية، هي مثل فتوحات «الاسكندر» مثلاً و «كنوز قارون» لا تزال تسمع بهما إلى اليوم، فالاسكندر لا ترى أثراً من ملكه، ولا تفتأ تذكر قارون ولا ترى ذرة من ذهبه.

واتساع الشهرة، وانتشار الصيت بين الناس برفعة القدر، وعلو الشأن، يكون من جهة إدراكهم، لكنه الفضل في العمل أحياناً، ويكون في الغالب من جهة إدراكهم للعمل، من غير تحقيق ولا التفات إلى قدر الفضل فيه، ولما كان الفضل ليس بشائع بين الناس، ولا لكل حي منه نصيب، وليس يدرك الفضل إلا من نال حظاً منه، كان الحصول على الشهرة والسمعة، وارتفاع الذكر بين الناس من جهته، من أصعب الأمور، وأبعدها منالاً، وقل من نال من سواد العلماء، وجمهور الحكماء، شيئاً من هذا القبيل في حياته. وأدركه قبل مماته، ومن رأيته وصل منهم إلى شبه حظ من الرفعة والشهرة، ونصيب من حسن الذكر والصيت، بين أهل جيله قبل أن يطويه الدهر فلا يكون مرجع ذلك لفضله وحده، بل لظروف معينة جادت بها الأقدار. والسبب في ذلك أن الناس يرون أنفسهم متساوين في الخلقة، ويعزّ عليهم أن يقع

التفاوت بينهم في مزايا النفس، فيتولد منهم لذلك ما شئت من التحاسد والتغابن، وشدة التنائي عن الإقرار بالفضل لصاحبه، واشهادهم على أنفسهم باتصافه بمزية في نفسه من دونهم. والناس أعداء ما جهلوا، فإذا مضى صاحب الفضل من بينهم لسبيله، وخلى مكانه، انجلت عن أبصارهم غشاوة الحسد. فتبينوا حقيقة فضله، وعلموا مقدار علمه، فنوهوا باسمه، وتولعوا بذكره. وهناك شهرة كاذبة، وسمعة باطلة، لا تقوم على فضل، ولا تدور على عمل يستحقها، ولكن انحطاط الأفكار، وقصور المدارك، يولد لصاحبها قدراً باطلاً في النفوس المنخفضة لانخفاضه إلى درجتها، واجتماعه معها في انحطاطها. فإذا ارتقت الأفكار، واستنارت الأذهان، ظهر لها انخفاض شأنه، فاعتلت عليه وخلفته وراءها ساخرة منه، هازئة به، فيسقط اسمه، وينقرض ذكره في حال حياته، أو عقب مماته، فلا تسمع له ذكراً، بعد أن لم يكن يسمع أحد بغير ذكره، وبعد أن كان لا يدور على الألسنة غير اسمه.

أما اتساع الشهرة وانتشار الصيت، من جهة العمال التي لا يكون لصاحبها فضل فيها لذاته ولا مزية، فهو أقرب ما يكون، وأيسر ما ينال بين الناس، لأن الفضل فيها بينهم ليس للشخص، ولا لمزية امتاز بها عن سواه، بل الفضل فيها لوقائع الأحوال، وتصرف الحوادث، فلا يبقى محل للحسد

والغبن. ولأن كل إنسان يرى نفسه أهلاً لها فلا تمتنع عليه إذا صادفته لحظة من إقبال دهره وأدركته لمحة من حسن الاتفاق في سيرته، وفوق ذلك فإن مثل هذه الأعمال الناشئة عن أحكام الزمن، وسلطان الحوادث، هي من الأمور الشائعة المتداولة التي تتناولها كل الأفكار ولا يصعب على الناس خاصة وعامة سرعة إدراكها وفهمها فتكون الشهرة على حسب ذلك في الاتساع والانتشار. وكل الناس يدركون معنى السعادة في الغنى، وقل من يدرك فيهم معنى السعادة في الحكمة. وكل الناس يدركون معنى الفوز والانتصار في الحروب، وليس كل الناس من يدرك معنى التعمق والرسوخ في العلوم. ولذلك ترى أن أكثر من ينال رفعة القدر، وشهرة الذكر، بين الناس في أسرع وقت، وأقرب مدة. واتفاق الإجماع عليهم، هم قواد الجند بقطع النظر عن كل فضيلة رمزية فيهم، إذا انتصروا يوماً في واقعة من الوقائع، وفازوا في معركة من المعارك التي ربما لم يكن لهم فيها أقل أثر من العمل سوى وجودهم في قيادة العسكر، ولم يقع الانتصار فيها إلا بحكم الاتفاق وتقدير القضاء، مما هو خارج عن قدرتهم، بعيد عن تصرفهم، وكم انتصر القائد بأدنى سبب وأوهى علة، وكم تبلج له الفوز والانتصار وهو في ظلمات اليأس وعند انقطاع الرجاء بهفوة من عدوه وزلة من محاربه، لم تخطر له بالخاطر، ولم تجر في الحسبان. وكم تولد الانتصار أيضاً

بعدة أمور لا دخل لها في مهارة القائد، ولا في حسن تدبيره، مثل جهل العدو وسوء اغترار وقلة عدده ونقصان عدته. أو لبعض العوارض الطبيعية في رداءة الموقع، ونزول الأمطار واتجاه الشمس، واكفهرار الجو، ونحو ذلك من الأسباب التي لا تُعد، ولا تحصى ولا تحصر ولا تستقصي. فما هو إلا أن تجود المقابر على أحد القواد بسبب من هذه الأسباب حتى ينتصر بها على عدوه فترى الناس كلهم أنصاره وأحزابه، ينوهون بذكره، ويتباهون بعمله ويشيدون باسمه، ويضعونه فوق الرؤوس، لا لأنه قد علم ما لا يعلمه سواه من فنون الحرب. أو أنه ابتكر طريقه في اللقاء لم يهتد إليها غيره. ولكن لمجرد كونه نال الفوز على عدوه بأي طريقة كانت فهو يشخص في أعينهم صورة الانتصار وكفى بها فضلاً لديهم وكفى بها مجداً له وفخراً، وصيتاً وذكراً.

تم بعون الله وتوفيقه.

الفهرس